



32101 022870974

Princeton University Library

This book is due on the latest date
stamped below. Please return or re-
new by this date.

الإمام المصنف
أحمد بن حنبل

■ أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله .
ما تقوى على ما يقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد .

محي بن معين

عن مجلة

المسالمون

مع العارفين



الإمام الممتنع
أحمد بن حنبل

■ أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ،
ما تقوى على ما يقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد .

بجى بن معين

عن مجلة

المستعملون

مع العارفين

2271

449

743

1953

القاهرة

١٣٧٣

المطبعة السلفية - ومكتبتها

٢١ شارع الفتح بالروضة خيوط ٢٩٣٦٤

٥٦٥٥



32101 022870974

سيرة الإمام الخميني

قرأت سيرته منذ سنوات ، وتحدثت بها إلى بعض إخواني فيما كانوا يحضرون من دروس الفجر ، فكنت كلما تمثله في خيالي بدا لي كأنه علم أشم ، شاهق الأركان ، تغيب في زرقة السماء ذراه المتسامية الرفيعة ، وتمتد أكنافه في عرض الأفق فلا يأتي النظر على غايته . . . فإذا أردت القول عنه شق عليّ أن أجد الطرف الذي أتناول منه الحديث .

تلك واحدة ، والأخرى أنه حفر في قلبي ثغرة عميقة من الأسى الحى المتجدد ؛ حفرها بصبره العجيب على الفقر والمرض والمحنة والسجن ، والورع في كل حال ، حتى أياأس أعلام زمانه أن يجرؤوا في مضماره ، وقطعهم أن يلاحقوا خطوه الواسع على متون الخشونة التي قدرت له ، حتى قال يحيى بن معين - وهو من هو جلالة شأن ورفعة منزلة - « أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ، ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ، ولا على طريقة أحمد ، . . . بل حتى وفدت عليه قلوب الناس مقرة له بالإمامة في الورع والفقه والزهد والصبر ؛ قال إبراهيم بن مته السمرقندي سألت عبد الله بن عبد الرحمن عن أحمد بن حنبل : أإمام هو ؟ فقال : أي والله ! وكأفضل ما يكون الإمام ! إن أحمد أخذ بقلوب الناس ، إن أحمد صبر على الفقر سبعين سنة ! .

حفر هذه النقرة العميقة بصبره الجلد العجيب ، فما ذكرته إلا أحسست معيتها الحى المتجدد يجيش فى أغوارها بوجدانه الرقيق الأسى . . . فيجتمع الإعجاب بالطود الأشم الساحق الشاخ بالأسى الرقيق العميق المتجدد ؛ وتأتلف منها صورة أحبتها أصدق الحب : صورة لا تطل على بعينين ، ولا أذنين ، ولا وجه جميل أو دمى ، ولا جسم طويل أو قصير ؛ وإنما بمعنى ضخم : هو الحقيقة التى عاشت فى هذه الأرض حيناً باسم أحمد بن حنبل ! .

لقد كان شيخاً طويلاً ، مخضوباً ، أسمر شديد السمرة ، ولكن شيئاً من تلك الصفات لا أثر له فى الصورة الوجدانية التى تبدو لى فيها حقيقة هذا الإمام الجليل رضى الله عنه .

ومع ذلك كله فهو سهل واضح ، لا تعقيد فى شخصه ولا غموض ، شأنه فى ذلك شأن كل حقيقة سافرة موطأة الأكناف . . . فإذا أردت أن تعرفه فاعرف عقلاً نقياً شخصاً لى الإسلام القوى الواضح ، لا فى أحكام وقواعد ونظريات ، وإنما فى متون سيرة رسول الله ﷺ . . . فثبت همه على تلك المتون متابعاً خطو نبيه ﷺ فى كل ما يعرض له من جليل الأمر أو دقيقه ، ومن حسيه أو معنويه ، لا يحيد عنها ولا يزيغ قيد شعرة . . . وانظر ذلك الذى يسير على ما هو أدق من الحبل ، وتحت هوة سحيقة مهلكة ، كيف يكون همه فى ذلك الذى يسير عليه ، وجده فى الاستمساك به ،

وحذره أن يميل أو يهلك ؛ فذلك هو أحمد بن حنبل في صدق متابعتة للظاهر من سنة رسول الله ﷺ في ورع وجد ووقار حتى عرف له ذلك أساتذته وشيوخه ؛ فكبر في نفوسهم وعظمت لديهم مهابته وجلالته ، قال خلف بن سالم : كنا في مجلس يزيد ابن هارون — المحدث الكبير في واسط — فخرج يزيد مع مستمائه فمتحنح أحمد بن حنبل — وكان معنا في المجلس — فقال يزيد : من المتحنح ؟ فقلنا : أحمد بن حنبل ؛ فضرب يده على جبينه وقال : ألا أعلمتموني أن أحمد هاهنا حتى لا أمزح ؟!

تمثل ذلك كله ، وتمثل معه صبراً عجيباً لا يدركه الوهن ولا الترخص ، صبراً يمتاز بالجدة والقوة حتى ليخيل إليك وأنت تقرأ له الحادثة من الحوادث أن صبره فيها هو كل ما تجمع في طاقته ، أو أنها استنفدت كل ما في طبعه من طاقة الصبر ، وأنت لن تجد هذا الطبع إلا مقصراً متخلفاً عن ذلك الشأ وفيما تستقبل من بقية الحوادث . . . فإذا انتقلت معه ، واستقبلت ، رأيت العجب ، وأدركت الدهشة والحيرة مما يتلاحق أمامك من آيات هذا الطبع السخي الصبور .

ذلك كله هو أحمد بن حنبل : عقل نقي . . . وهمة منعقدة بآثار رسول الله ﷺ . . . وصبر لا يغيض له معين ، ولا تهن له قوة ، ولا تبلى له جدة ! .

بدأ يحضر مجالس العلماء الكبار ويستمع إلى حديث رسول الله ﷺ وسنه خمس عشرة سنة أو ست عشرة ، يحليه طبعه الأبى ، وورعه العميق . وصمته الوقور ، فما لبث أن ذاع صيته ، وصار المشار إليه من بين أقرانه حتى قال الهيثم بن جميل : إن لكل زمان رجلا يكون حجة على أهله ، ولقد كان الفضيل بن عياض حجة على أهل زمانه ، وأظن هذا الفتي — إن عاش — سيكون حجة على أهل زمانه ، وهو يعنى أحمد بن حنبل .

ولقد كان يجمع الحديث جمع الإمام الفقيه ، لا جمع الإمام الراوية فحسب ، فكان يحيل عقله النقي فيما يحفظ ، ويمتاز بصدق ما يستخرج من أحكام الفقه وأجوبة المسائل . حضر قوم من المشتغلين بجمع الحديث مجلس الفقيه الكبير أبي عاصم الضحاك ، فقال لهم : ألا تنفقون وليس فيكم فقيه ؟ وأخذ يلومهم ، فقالوا : فينا شاب فقيه سيجيء الساعة . وكانوا يعنون أحمد بن حنبل . فلما حضر قال له أبو عاصم : تقدم . . . فقال : أكره أن أتخطي الناس ^(١) ، فقال أبو عاصم : تلك أولى دلائل فقهه . . . أو سعوا له . فأوسعوا ، فدخل حتى جلس بين يديه ، فألقى إليه مسألة فأجاب ، وألقى ثانية فأجاب ، وثالثة فأجاب ، ومسائل فأجاب . فقال أبو عاصم : هذا من دواب البحر — يقصد أنه عجيبة من عجائب العلم .

(١) ورد في سنة رسول الله كراهة تخطي رقاب الناس في المسجد ومجالس العلم .

وإنك لا تخطيء في هذا الفقه خصائص الإمام ابن حنبل .
 ونهجه في ملازمة السنة والأخذ من آثار الصحابة رضي الله عنهم .
 قال إبراهيم بن هانيء : اختفى عندي أحمد بن حنبل ثلاثة أيام ،
 ثم قال : اطلب لي موضعاً حتى أتحوّل إليه . قلت : لا آمن عليك
 يا أبا عبد الله . قال : إذا فعلت أفدتك فائدة من العلم . فطلبت له
 موضعاً ، فلما خرج قال لي : اختفى رسول الله ﷺ في الغار ثلاثة
 أيام ثم تحوّل ، وليس ينبغي أن تتبع رسول ﷺ في الرخاء .
 وترك متابعتة في الشدة . . . ولقد صلى يوم محنته والدم يسيل من
 مواضع ضرب الشيطان ، فأنكر عليه بعضهم ذلك ولفته إليه ،
 فقال : لقد صلى عمر رضي الله عنه بالناس وهو مطعون ينزف
 منه الدم .

هذا هو مذهبه في العلم والفقه ، ولذا كان يرى من ضيعة العلم .
 وسقوط منزلة المرء أن يسعى لتلقى أقوال الرجال في الفروع
 والمسائل ، وينصرف عن سوق السنة وهي رابضة . قال موسى
 ابن حزام : كنت أختلف إلى أبي سليمان الجرجاني لا تلقى عنه كتب
 محمد بن الحسن في فقه أبي حنيفة ، فاستقبلني أحمد بن حنبل عند
 الجسر ، فقال لي : إلى أين ؟ قلت : إلى أبي سليمان . فقال : العجب
 ممنكم ، تركتم ثلاثة يبلغون بكم النبي ﷺ ، وأقبلتم على ثلاثة يبلغون
 بكم أبا حنيفة ! فقلت : كيف يا أبا عبد الله ؟ قال : يزيد بن هارون

يحدث الناس بواسط فيقول : حدثنا حميد عن أنس عن رسول الله ﷺ ، وصاحبك أبو سليمان يقول : حدثنا محمد بن الحسن عن يعقوب عن أبي حنيفة ! قال موسى بن حزام : فوقع في قلبي قوله ، فاكترت زورقاً من ساعتي ، فأنحدرت إلى واسط فسمعت من يزيد بن هارون . وقال عبد بن حميد : كنا في مسجد وأصحاب الحديث يتذاكرون وأحمد يومئذ شاب إلا أنه المنظور إليه من بينهم ، فجاء رجل من بلخ فدنا من أبي عبد الله فسأله شيئاً فأجابه . فقلب الشيخ عليه الكلام ذاهباً مذهب المعاطلين في الفروع والآخذين بالرأى — قال وكان أحمد قليل الكلام — فلم يرد عليه إلا أنه أشار بيده اليمنى هكذا : أى تنح عني ، ففطن بعض أصحابه إلى أنه سأله عما لا يعنيه . ثم قال أحمد للرجل : يا هذا ، إنما مجلسنا مجلس مذاكرة حديث رسول الله ﷺ ، وحديث أصحابه ، فأما الذي تريد أنت ، فاقصد له مجلس ابن أبي دؤاد .

وفي سبيل تحصيل سنة رسول الله ﷺ ، رحل من بغداد ما شيئاً إلى صنعاء ليسمع الحديث من عبد الرزاق محدث اليمن الكبير . فكثت بها قرابة عامين ، وعاد منها إلى مكة مجهداً بما لقي من خشونة العيش ومشقة الحرمان ، قال أحمد بن إبراهيم الدورقي : لما قدم ابن حنبل مكة من عند عبد الرزاق رأيت به شحوباً . وقد تبين عليه أثر التعب والنصب ، فقلت : يا أبا عبد الله ، لقد شققت على نفسك

في خروجك إلى عبد الرزاق ، فقال : ما أهون المشقة فيما استفدنا من عبد الرزاق ! كتبنا عنه حديث الزهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه ، وحديث الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة .
بهذا الحب لسنة رسول الله ﷺ والحرص على تلقيها ، والورع في تحرير متونها ، وشدة التثبت من حال روايتها علا شأنه ، وريخت قدمه ، وسار ذكره ؛ حتى قدّمه العلماء ، وأقر له الأئمة بجلالة القدر ، فقال له الامام الشافعي رضي الله عنه يوماً : يا أبا عبد الله أنت أعلم بالأخبار الصحاح منا ؛ فإذا كان خبر صحيح فأخبرني به حتى أتحوّل إليه . . . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : فإذا وجدت الشافعي يقول في كتابه : حدثني الثقة ، أو أخبرني الثقة فهو أبي رحمه الله .

نعم ، لقد أياس أعلام عصره أن يجروا في مضماره ، وقطعهم أن يلاحقوا خطوه الواسع على متون الورع والخشونة التي قدرت له ، حتى قال يحيى بن معين كلمته التي في صدر هذا الحديث . وقد حاولنا في الصفحات الماضية أن نصور ورعه وحرصه الشديد على ملازمة سنة رسول الله ﷺ فقلنا : « وانظر ذلك الذي يسير على ما هو أدق من الحبل ، وتحته هوة حبيقة مهلكة ، كيف يكون همه في ذلك الذي يسير عليه ، وجدّه في الاستمساك به ، وحذره أن يمثل يئمة أو يسرة ، وخوفه أن يسقط إلى الهلاك الفاجر فاه تحت

قديمه ؛ فذلك هو أحمد بن حنبل في صدق متابعتة للظاهر الثابت من سنة رسول الله ﷺ في ورع وجد ووقار ، حتى عرف له ذلك أساتذته وشيوخه فكبر في نفوسهم وعظمت لديهم مهابته وجلالته ■ ومذهبه الناصع الواضح الذي بناه على تلك المتابعة معروف للناس ، مستفيض ذكره فيهم ، وما زال كثير ممن يرضى لدينه نصاعة الحجة وسلامة البرهان يتبع ذلك المذهب إلى اليوم في ثقة وطمأنينة .

ولكننا اليوم لسنا بصدد مذهب في الفقه والأحكام ؛ وإنما بصدد مذهب في الورع العميق ، وتجريد معيشتة من كل شبهة ، بل من ظل أى شبهة تغض من نصاعة الحلال في رزقه ، وصبره على ذلك صبراً أيأس أعلام عصره أن يجروا في مضماره حتى لم يجدوا حرجاً أن يقولوا « والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد » .

كان يملك من دنياه داراً يسكن بعضها هو وأهله وبنوه ، ويؤجر سائرهما فلا يكاد الايجار يقي بمطالب الكفاف من معيشتة . والكفاف في المعيشة أمر اعتبارى يختلف مستواه لدى الأفراد باختلاف ما تطيقه نفس كل منهم من الصبر على الخشونة وضيق العيش وقلة الموجود ؛ ولقد كان كفاف بعض الأئمة يعتبر من أوسع السعة إذا قيس بالكفاف الذي صبر عليه إمامنا الجليل رضى الله عنه ؛ فلقد روى ابنه عبد الله فيما روى من أخبار أبيه

بعد المحنة أنه أدخل دار المعتز وفي قدميه خف ، قد أتى عليه له عنده نحو من خمس عشرة سنة مرقوعاً برفاع عدة . .

ولقد حج رضى الله عنه حجتين راكباً ، فكم تقدر له من نفقة في كل حجة ؟ كم تقدر لشخص يحج من بغداد عاصمة العراق إلى الحجاز ثم يعود لوطنه فيما يتراوح بين أربعة وستة أشهر . . . ؟ لقد حدث ابنه عبد الله أنه أنفق في إحدى هاتين الحجتين عشرين درهما لا غير ! فإذا رأيت في ذلك مستوى من الكفاف لا تكاد تطيقه نفس ، فاعلم أنه مستوى يصور لك بعض السعة في حاله ، أما حقيقة مستواه فتصوره حجاته الأخرى ، إذ لم يجد في سعته نفقة الركوب فحج خمس حججات ما شيئاً وهو إمام جليل يشار إليه بالبنان .

ولقد شرق ذكره وغرب . وأقبل عليه وجوه الناس ، ورغبوا في صلته بأنواع البر والهدايا ومنح المال ، فما ترخص في ورعه وما أدخل على زهده منةً لمخلوق قط ، فعاش كما قلنا طوداً سامقاً تغيب في زرقة السماء كواهل الرقيقة قبل أن تصل العيون إلى غاية ذراه .

كان يتردد عليه شاب من الضيافة فناوله يوماً درهمين ليشتري له بها كاغداً ، فاشترى الشاب ووضع له في جوف الكاغد خمسمائة دينار . وشده وأوصله إلى البيت ، فلما رجع الامام سأل

عن الكاغد فدفعه إليه أهله فما إن فتحه حتى تناثرت الدنانير ،
فردّها إلى مكانها منه ومضى إلى الشاب فوضعها بين يديه « فتبعه
الفتى وهو يقول : الكاغد اشتريته بدراهمك ، نخذه دون الدنانير ،
فأبى أن يأخذ الكاغد أيضاً ١١ .

ولقد وجه إليه صديقه الحسن بن عبد العزيز ثلاثة آلاف
دينار ، قائلا له مع الرسول : يا أبا عبد الله هذه من ميراث حلال
من مائة ألف جاءنى من مصر ، نخذها واستعن بها على عيالتك ،
فأبى . فألح عليه الرسول — وهو أخو الحسن — فلم يقبل . فقال
الرسول فى نفسه : لعلّ لو أخبرته أنها ثلاثة آلاف قبلها ، فقال
له : يا أبا عبد الله إنها ثلاثة آلاف ، فلما سمعها قام وتركنى .

وأرسل إليه أحد الصالحاء الأخفيا رسالة — لم يذكر فيها
اسمه — مع رجل صالح يرجوه فيها أن يقبل أربعة آلاف « لتقضى
بها دينك وتوسع بها على عيالك ، قال ابنه صالح : « وكنا فى أيام
الوائق ، والله يعلم فى أى حالة من الضيق نحن ، فدخلت مكان أبى
— وكان خرج لصلاة العصر — وقد كان يجلس على لبد قد أتت
عليه سنون كثيرة حتى بلى ، فرفعت اللبد فوجدت كتاب الرجل
الصالح . . . قال فلما عاد أبى سأله عن هذا الكتاب فاحمر وجهه
وقال لقد أخفيتك منك . . . ثم قال له « تذهب بجوابه إلى الرجل
الذى جاءنا الكتاب على يده ، فحملت الجواب وفيه : « أما بعد

وصل كتابك إلى ونحن في عافية ، فأما الدين فإنه لرجل لا يرهقنا ،
وأما عيالنا فهم في نعمة والحمد لله . فقال لى الرجل . ويحك لو أن
أبا عبد الله قبل هذا الشيء ورمى به — مثلاً — فى دجلة كان
مأجوراً لأن هذا الرجل ممن يسترون معروفهم فلا يدرى
به أحد . . . قال صالح : فلما مضت سنة ذكرنا ذلك فقال أبى :
لو كنا قبلناها لما كان معنا الآن منها شيء إلا منّة الناس علينا !!

ولم يكن ذلك فى تلك الأيام الناضرة مما يغض من قدر أحد
لو أخذ ، فهو مما يتقرب به الناس إلى الله لمن فرغوا نفوسهم لبيان
التدين وتوضيح مناهجه وطرائقه ، وإن ما يدفعه الأغنياء من ذلك
لقليل بجانب ما يبذله العلماء من عصارة القلب وأشعة الذهن . . .
ولكن إمامنا الجليل رضى الله عنه رأى ضيق الدنيا ليس بضيق ،
ومحنة المرء فى عيشه ليست بمحنة إذا سلم له يقينه ، ورأى نعمة الله
عليه أجل من أن تراحمها فى الشكر نعمة لآخر كائناً ما كان ، فلم
تتمد منه نظرة واحدة إلى ما عند سواه .

ولقد كان تراحم الأئمة أن يصل أولو الفضل منهم والسعة من
كان منهم فى ضيق وشدة ، ولقد كان لإمامنا الليث رضى الله عنه
سنن ماثور من ذلك ، إذ كان لا يقطع بره عن يعرف من أكبر
الأئمة وأهل العلم ، وكان هؤلاء رضوان الله عليهم — وفيهم الإمام
مالك — لا يرون بأساً فى قبول ما يصلهم به أخوهم ، ولكن أحمد

رضى الله عنه آثر لنفسه نهجاً آخر حدث عنه فقال : « عرض على يزيد بن هرون — المحدث الجليل بواسط وكان من المياسير — خمسمائة درهم فلم أقبل منه ، وأعطى يحيى بن معين وغيره فقبلوا منه » .
ولقد كان الخلفاء يرون أن يعينوا فقراء الأئمة ورجال الحديث من بيت المال ، وكان لا حرج على أحدهم أن يأخذ ، فهو مما ينفق في سبيل الله ويعين على التفرغ لأقدس واجب ، ولكن إمامنا القذ لم يرض لنفسه أن يمد يده !! قال إسحاق بن موسى الأنصارى : دفع إلى المأمون ما لا أقسمه على أصحاب الحديث ، فإن فيهم ضعفاء ، فابقى منهم أحد لم يأخذ إلا أحمد بن حنبل فإنه أبى .

قال له ابنه صالح : يا أبت ، إن أحمد الدورقي أخذ ألف دينار ، فقال « يا بني ، ورزق ربك خير وأبقى » . . . وذكر عنده رجل فقال « يا بني الفائز من فاز غداً ولم يكن لأحد عنده تبعه » .

ولم يكن الإمام يذوق — مع هذا الفقر — كرباً تضيق به نفسه ، وتظلم معه الدنيا في عينيه ، بل كان يجد في ضيق العيش أوسع السعة ، وفي ظلام السكرية آفاقاً من الضياء والرضاء ، قال ابنه عبد الله : ذكر الفقر عند أبي فسمعته يقول « الفقر مع الخير » .
وهذا كلام جليل لا يصف خاطراً مر بالنفس ، أو طيفاً ألم بخيال صاحبه ، بل يصف حقيقة مستعلنة في سريره ، ومواجيد يذوق طعومها في خفية نفسه . . .

والناس ضربان : ضرب يعيش في عيشه ، وآخر يحيا في حقيقة نفسه . . . فالأولون هم الذين يذوقون مسراتهم أو يلحقونها من خلال ما بأيديهم من رزق قليل أو كثير ، فإذا لذّ المرعي قال : ربّي أكرم . وإذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه قال : رب أهان ، فوجوده وجود الرغيف والقميص ، وجذوره لا تتصل في الحياة بغير هذين . . . وأما الآخرون فهم الذين انتقلت أذواقهم من المحيط الظاهر التافه إلى معين الحق القوى الجميل ، وامتدت مشاعرهم إلى ضمير هذا الكون ، فاستروحوا بقدس الله فرحاً بغير مال ، وأنسا بغير أهل ، وجاهاً بغير منصب ، وسعادة بغير مصدر محسوس ؛ فإذا ذكر فضل الله حدث ما شئت عن نشوة الطرب ، وإذا ذكرت الدنيا فقد ذكرت السلعة المزجاة ، والعرض الكاسد المردود . وذلك هو الذي عرفه الناس من حال أحمد وتكلموا به ؛ قال أبو داود السجستاني : لقيت مائتين من مشايخ العلم فما رأيت مثل أحمد بن حنبل ؛ لم يكن يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا ، فإذا ذكر العلم تسكلم .

ولعل أحداً أن يقول لنا : وأين الصبر الذي ادعيتموه لأحمد ، وزعمتم أنه متجدد الطاقة لا ينفد له مدد ؟ . . . ونقول : إن هذا الذي نصف هو الصبر ؛ وليس للصبر معنى تتماصك به النفس في كل موقف من مواقف المحنة أو النعمة ، فإذا بها تؤدي للحق في كل موقف ما يجب عليها له .

أو هو روح من أمر الله يمك المرء أن ينساق مع مشاعر الحياة الدنيا ، فلا يعيث به الأسى على فائت . ولا يستخفه الفرح بما يذوق من نعاء ، ويجعله أكبر من كل ما يعتريه من فتن العيش ، فإذا كان في محنة رأى نفسه فلم ير فيها إلا أنها فرصة من فرص التطهر والتطور إلى ما هو أحسن . وإذا كان في سعة لم تخرجه السعة عن طوره لأن ما يرد على قلبه من سعة فضل الله أعز وأهنأ . وذلك من أصدق ما قرره القرآن الكريم من خصائص أهل الصبر ﴿ ولئن أذقنا الانسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليثوس كفور ، ولئن أذقناه نعاء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح خور ، إلا الذين (صبروا) وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير ﴾ .

ولقد استعلنت تلك الصفة في نفس أحمد رضى الله عنه إلى جانب ما استعلن من صفات ؛ فكانت القوة التي غالب بها التيار وظهر بها على كل مشقة ، وبفضلها اجتاز كل محنة ، وخرج من كل شدة أصفى ما يكون معدناً على حد ما قال بشر بن الحارث « أدخلوا أحمد بن حنبل الكبير فخرج ذهبية حمراء » .

فالصبر هو القوة الغالبة التي تطفو بصاحبها دائماً على كل حادث من محنة أو منحة ، فيصرف هو كل حادث ، ولا يدع لحادث أن يُصرفه ، لا يلتفت قلبه لشيء من ذلك ، ولا يرى في كل حال

إلا وجه الله جل ثناؤه . . . وتلك هى الصفة التى كان يعيش وجدان أحمد فوق بساطها .

ومن فوق بساط تلك الصفة كان أحمد رضى الله عنه يفرح بالفقر ، بل يفرح من خلويده من عرض الحياة الدنيا ، قال ابنه صالح ، قال لى أبى يوماً : يا بنى ، إذا أنا لم يكن عندى قطعة أفرح ، . . . وهو تعبير دقيق يلم بمعنى أصيل ؛ فأرباب القلوب حين ينصرفون عن المال لا ينصرفون عنه فحسب ، بل ينصرفون إلى ما هو أرح وأوفر مغنا . فلهم فى وجه الله ثقة تعظم وتستفيض كلما خلت أيديهم من عرض هذا الأدنى ، فيجدون لها روعة وحلاوة وثباتاً إذا صاروا من فضل الله وكلاءته وجهاً لوجه ، ولله معهم - حينئذ - من تصاريف اليسر ما يضحك سرائرهم ، فلا يدرى أحدهم أضحك لما ذكره الله به من يسر ، أم لأن اليسر ورد عليه من باب لم يرد بحسبانه ولم يخطر له على بال ؟ . . . إن أرباب هذه الحقائق يشعرون فى قرارة نفوسهم أن فضل الله يحجب عن قلوبهم بالقليل الذى فى أيديهم ؛ فإذا زال ذلك القليل تفتحت مصاريع القلوب . وأقبل فضله سبحانه على سعته ، فغمرها ثقة لا حد لها ، ثباتاً لا يجده أقوى الناس بماله ، فإذا قال أحمد : إن الفقر مع الخير ، وإن الفرح يأتيه كلما خلت يده من المال ؛ فهما قولان ينبعان من مشكاة واحدة ويتظاهران على تأييد معنى

واحد : هو حياة المرء في حقيقة نفسه . لا في تفاهة القشرة الظاهرة .
من عرض هذه الحياة الدنيا .

* * *

ومن خلال هذه الحقيقة تشبث أحمد بالخلال ، ووجوب
السعى في طلبه ، وتجريده من كل شبهة ، وذهب في ذلك إلى أبعد
مدى يمكن تصوره ، ولم يجد ما يصفه لكسب طمأنينة القلب
وسلامة النفس إلا كسب الخلال على النحو الذي يدركه هو ويسطع
معناه في يقينه . قال عمر بن صالح الطرسوسي : سألت أحمد بن حنبل
بم تلين القلوب ؟ ... فنظر إلى أصحابه - وكان السؤال أعجبه -
فغمزهم بعينه وأطرق ساعة ثم رفع رأسه فقال : يا بني ، بأ كل
الخلال ، فقال : فررت ببشر بن الحارث فسألته : بم تلين القلوب ؟
فقال : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ . فقلت له : لقد جئت
الآن من عند أبي عبد الله ، فقال : هيه . . . إيش قال لك
أبو عبد الله ؟ قلت قال : بأ كل الخلال . فقال : جاء بالأصل ، . . .
فررت بعبد الوهاب بن أبي الحسن فسألته : بم تلين القلوب ؟ قال :
﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾ قلت فإني جئت من عند أبي
عبد الله ، فاحرت وجنتاه من الفرح وقال لي : إيش قال لك
أبو عبد الله ؟ فقلت قال : بأ كل الخلال . فقال جاءك بالجواهر ،
جاءك بالجواهر ، الأصل كما قال ، الأصل كما قال ! .

أما تصويره لصفاء الخلال وتحريره أن يكون عيشه كما فهم
وتصور ، فيطالعنا من أكثر حالاته وتصرفه مع الناس . وقع منه
مرة مقراض في بئر ، فجاء أحد ساكني داره فأخرجه ، فناوله
أحمد نصف درهم ، فقال الرجل : المقراض لا يساوي إلا قيراطاً
فكيف آخذ على إخراجك ستة قراريط (نصف درهم) ؟ لا آخذ
شيئاً ؛ ولكن هل سكت أحمد على ذلك ؟ هل رضى لكسبه أن
يدخل عليه ذلك النوع من الاستغلال . . . لقد انصرف الرجل
وهو يعتبر أن المسألة منتهية ، إذ لا تستحق في تقديره أن يقيم لها
أى وزن ؛ بل لعله كان يعتقد أن من البركة أن وفقه الله لأن يقضى
للإمام هذه الحاجة اليسيرة . أما أحمد فلم ينصرف من المسألة .
ولم ينته منها كما انتهى الرجل . فظل يفكر ، فلما كان بعد أيام قال
له : كم كراء حانوتك في الشهر ؟ قال : ثلاثة دراهم . . . قال : كم
شهر أعليك من الكراء ؟ قال ثلاثة أشهر ، فضرب أحمد على حساب
الرجل وقال له قد وضعت عنك دينك . وأحللتك مما عليك . . .
وبذلك أزاح أحمد عن قلبه تلك الشبهة التي أقلقته باله أياماً .

ولقد كان في سفرة ، فنفدت النفقة من أصحابه . فعرض المال
عليهم فأخذوا ، أما هو فعرض فروة له وقال : من يبيع هذه
ويجيئني بشئها فأتسع به ؟ قال حمدان الواسطي : فأخذت صرة دراهم
فقصيت بها إليه ثمناً للفروة ، ولكن أحمد لم يقبل أن يكون في ثمن

فروته ظل لصدقة ، فرفض الصرة . . . فعاد الرجل بالفروة ، فقالت له امرأته : إنه لم يرضها ، وهو رجل صالح فأعطته ضعفها ، فأضعفها له ، فلما رأى أحمد إلحاح الرجل فى بذل المعروف ثمناً للفروة جذبها منه وخرج . ولعل الصبر على الفقر وعلى طلب الحلال يطالعنا مجلواً ساطعاً من خلال هذين الحادثين أروع وأجلى ما يكون .

لم يكن العلم يومئذ يقاس لدى القوم والناس بالشهادات ، والألقاب ، بل بالسياحة فى بلاد الله والرحلة إلى مختلف الأقطار الثانية للقاء الرجال والسماع منهم والتلقى عنهم وأخذ ما عندهم ، ولم يكن يدخل فى عداد أهل العلم من لم يلق العشرات من شيوخه ولم يرحل فى طلبه إلى الأمصار المختلفة . . . ورحل أحمد رضى الله عنه ليلقى أئمة الحديث والأخبار الصحاح ، رحل ماشياً إلى طرسوس بأعلى بلاد الشام ، ورحل إلى اليمن ليلقى بهما محدثها الكبير عبد الرزاق ماشياً . وليس صبره على المشى بغريب عليك . فقد علمت بما سبق أنه حج خمس مرات ماشياً ، ولكن الذى نريد ذكره فى رحلته لعبد الرزاق أن نفقته انقطعت فى الطريق ، فعرض عليه أصحابه المساواة فلم يقبل من أحد شيئاً ، وأكرى نفسه جمالاً مع الجمالين ليأكل مما يخدم به القافلة ؛ فإذا كنت لا تملك نفسك من إجلال ذلك الإمام الراحل ماشياً فى طلب العلم فلا يفوتك ملاحظة الصفاء الذى سما إلى مستواه فى كسب الحلال .

قال عبد الرزاق : قدم علينا أحمد بن حنبل ، فأقام سنتين إلا شيئاً ، فقلت له : يا أبا عبد الله خذ هذه الدنانير فانتفع بها فإن أرضنا ليست بأرض متجر ولا مكسب . فقال : أنا بخير . . . ولم يقبل مني ! .

وقال سليمان الواسطي : بلغني أن أحمد بن حنبل رهن نعله عند خباز على طعام أخذه منه حين أراد الخروج من اليمن ، فلما خرج وليس معه شيء عرض نفسه على الجمالين ليكرى نفسه منهم في خدمة القافلة ، فلقى من المشقة في خدمته ومشيه ما لا بد أن يلحق مثله في سنه . قال أحمد بن إبراهيم الدورقي : لما قدم أحمد بن حنبل علينا مكة من عند عبد الرزاق رأيت به شحوباً وقد تبين عليه أثر التعب والنصب ؛ فقلت : يا أبا عبد الله ، شققت على نفسك في خروجك إلى عبد الرزاق ! فقال : ما أهون المشقة في جنب ما استفدنا من عبد الرزاق ! ! .

وإني أدع لك أن تتصور الجلالة التي يجب أن يضيفها على أحمد بن حنبل هذا المنهج الرائع من الورع والتقى والصبر على المشقة في سبيل الله ، والدقة في تحرى الحلال والاستبراء لعيشه من كل شبهة . . . إنها جلالة سميت به حتى فاق كل أقرانه ، وغرست هيئته في كل نفس حتى سعى الجميع إليه بالكرمة والمودة . لما نزل القوم صنعاء — وفيهم أحمد — نزلوها ليلاً ، فألفوا عبد الرزاق جالساً

في موضع ، فجلسوا إليه ، ولم يكن من عادة العلماء يومئذ أن يحدثوا من محفوظهم شيئاً إلا والمرجع معهم ، ولم يكن المرجع ساعتئذ مع عبد الرزاق ، ولكنه أراد أن يحسن لقاء أحمد بتحية طيبة فأملى على القوم سبعين حديثاً من حفظه . . . قال أحمد بن حنبل : ما كتبنا عن عبد الرزاق من حفظه شيئاً إلا المجلس الأول ؛ وذلك أنا دخلنا عليه بالليل فأملى علينا سبعين حديثاً ، ثم التفت إلى القوم وقال : لولا هذا — وأشار إلى — ما حدثتكم !! .

ولقد أرسل إليه أحد الخلفاء صلة من المال ، فامتنع وردّها ردّاً حسناً . . . ولقد يكون في ذلك نوع من الورع والرفع وتحري الحلال . ولكن ستعود إلى التحليق في آفاق الإمام العليا حين تعلم أن عمه وابنه صالحاً ، قبل تلك الصلة ، بدون علمه ، تحت ضغط الفقر ومطالب العيال . فلما علم رضى الله عنه ، هجرهما ورعاً وتأثراً ، وأمر بجدار فصل بينه وبين ابنه صالح ، وامتنع من الصلاة خلف عمه . . . ولم يكن عندهم دقيق — في يوم من الأيام — فاستسلف دقيقاً وأمر بعجنه وخبزه ، فقدم إليه بعد قليل مخبوزاً ساخناً ، فعجب لتلك السرعة . فأخبروه أن فرن دار ابنه صالح مسجور للخبز . وأنهم خبزوه في ذلك الفرن ، فلما سمع ذلك كف عن الطعام وأمر برفعه تحرجاً وتوقياً من الشبهة ، لأن ابنه أكل من جوائز الخلفاء !! .

يا أخى ، إذا لم يكن لمثل هذا الإمام الجليل المراتب السنية
عند الله ، والمنازل الرفيعة ، فلن تكون ؟ وإذا لم يكرمه الله بقبول
دعائه إذا دعا لمريض أو مسكين فلن يستجيب الدعاء ويجرى
الكرامة ؟ قال رجل من أهل بغداد : كانت أمى مريضة مقعدة
زمنة ، فقالت لى يوماً : إذهب إلى أحمد بن حنبل فاسأله أن يدعو
الله لى ، فسرت إليه ، فدققت عليه الباب وهو فى دهليزه فلم يفتح .
وقال : من هذا ؟ فقلت : أنا رجل من أهل ذاك الجانب سألتنى
أمى وهى زمنة مقعدة أن تدعو لها الله . فسمعت كلامه كلام رجل
مغضب : نحن أحوج إلى أن تدعو هى الله لنا !! فوليت
منصرفاً ، فخرجت امرأة عجوز من داره فقالت : أنت الذى كلمت
أبا عبد الله ؟ قلت : نعم . قالت : قد تركته يدعو الله لها . قال :
خفت من فورى إلى البيت فدققت الباب فخرجت أمى على رجلها
تمشى حتى فتحت الباب . فقالت : قد وهب الله لى العافية .

واجتمع المجلس يوماً فى دار يحيى بن معين ، فقال يحيى فيما قال :
ما رأيت مثل أحمد بن حنبل ؛ صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا
بشيء ، مما كان فيه من الصلاح والورع والخير !! فقال قتبية
ابن سعيد : ومن مثل أحمد ؟ والله لولا أحمد بن حنبل لمات الورع .
فقال مصعب الزيرى : ومن فى ورع أحمد وعبادة أحمد ؟ يترفع
على جوائز الخلفاء حتى يظن أنه الكبر ، ويكرى نفسه مع الجمالين

حتى يظن أنه الذل ؛ ويقطع نفسه عن مباشرة عامة الناس وغشيان خاصتهم أنساً بالوحدة فلا يراه الرائي إلا في مسجد ، أو عيادة مريض أو حضور جنازة ، ولم يقض لنفسه بعض ما قضينا لنفوسنا من شهوات . قال يحيى بن معين : أراد الناس منا أن نكون مثل أحمد بن حنبل ، لا والله ما نقوى على ما يقوى عليه أحمد ولا على طريقة أحمد !! فقال رجل في المجلس : بعض هذا الثناء يا قوم ؛ فإن الرجل ليس بالمسكان الذي تقولون . . . فقال الحسين الكرابيسي : مثل الذين يغضون من قدر أحمد مثل الذين يحاولون هدم جبل أبي قبيس بأكفهم !! فقال الرجل ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾ . فتغير يحيى بن معين وصاح في الرجل : أتزعج أن الثناء على أبي عبد الله غلو في الدين ؟ يا هذا إن الثناء على أبي عبد الله من أطيب مجالس الذكر . . .

توافد جماعة المعتزلة — وعلى رأسهم أحمد بن أبي دؤاد — إلى قصر الخلافة بسامرا ، حيث اتخذوا مجالسهم في مجلس الخليفة المعتصم . وجلس في صدر المجلس يحف به كبار القواد من خراسان وقوفاً على رأسه ، وكان مطرقاً تبدو عليه أمارات القلق والهم ، ثم رفع رأسه بعد برهة ونظر إلى أحمد بن أبي دؤاد وهو يقول : هيه يا ابن أبي دؤاد : أما زلت مصراً على رأيك في محنة هذا الرجل ؟ .

فقال ابن أبي دؤاد - وقد أفرعه مارأى على وجه الخليفة وما سمع من كلامه الذى ينم عن رغبته فى ترك أحمد بن حنبل بدون محنة - : إنه ضال مضل مبتدع ، وإن ضلالته تلقى رواجاً بين العامة . . . ثم سكت قليلاً وقال : وماذا تقول لابن عمك رسول الله ﷺ إذا قال لك يوم القيامة يعاتبك : تركت أحمد ابن حنبل يلبس على الناس دين الله الذى تركته نقياً صافياً ، ويدخل الزبغ على عقائدهم ويعلمهم أن الله يتكلم بجارحتين غير منزه عن التشبيه والتجسيد .

فقال أحد الجالسين من كبار المعتزلة : يا أمير المؤمنين ، إن هذا كفر بواح ، وإن هذا الرجل يذيعه فى الناس ! وقد أقامك الله فينا لترعى هذه الأمانة التى جاهد ابن عمك رسول الله ﷺ فى تقريرها . . . وهل بعث ابن عمك ﷺ إلا لينفى عن الله التشبيه والتجسيد ؟ اقتله يا أمير المؤمنين ودمه فى رقابنا ! .

قال المعتصم : وكيف نقتله وقد بلغنى أن الناس قد ملئوا الطرق والميادين ووقفوا بأبواب الشوارع وأخذوا أساحتهم وهم يقولون إن أحمد بن حنبل يفتن اليوم ، وقد علموا أننا أحضرناه من سجته ببغداد إلى هنا .

فقال المعتزلى : ومتى كان عوام الناس يا أمير المؤمنين حكماً فيما لا يفهمون ؟ إن هذا أدعى إلى أن تعاجله قبل أن يستفحل أمره !

فقال معتزلى آخر : وما عليك أن تقتله يا أمير المؤمنين وقد كان أخوك المأمون أحضره من بغداد إلى طرسوس ليقته على هذا الكفر ! .

فقال ثالث : نعم يا أمير المؤمنين ، فلو مد الله فى عمر الخليفة المأمون أياماً قليلة لقتله ، ولكنه مات قبل أن يصل هذا الضال المضل إلى عسكره .

قال المعتصم : نعم ، وقد أوصانى أمير المؤمنين المأمون أن أقمع رجال البدعة ولا سيما هذا الرجل ، فهو ذو حظ فى الناس ومنزلة كبيرة لدى عوامهم . ولكنى أخشى الفساد ، والناس اليوم فى هرج ومرج كأنما استعدوا للفتنة والهياج .

فقال أحد المعتزلة : إن العوام لا يخشى بأسهم إلا إذا كان زمامهم بيد رجل يدبر أمرهم ويجمع شملهم . . . وأنت يا أمير المؤمنين قد أمكنك الله من هذا الرجل وهو فى سجنك تحت حراسة الحفظة من رجالك لم يتصل بالناس ولم يتصل الناس به منذ ثمانية وعشرين شهراً .

قال المعتصم ، وكأنما راعه طول المدة : منذ ثمانية وعشرين شهراً ؟ ما أسرع ما تمر الأيام ! .

قال المعتزلى : أهى كثيرة يا أمير المؤمنين ؟ إنه لو أمضى ثمانية وعشرين عاماً لكان ذلك دون ما يستحق ! . . .

إن أحداً لن ينسى له سوء أدبه يوم جاء كتاب أمير المؤمنين المأمون إلى والى بغداد إسحاق بن إبراهيم . (فنظر المعتصم كأنه يستوضح المعتزلى ما يقول) فانطلق المعتزلى يقول : نعم ، كان أمير المؤمنين فى جيشه خارج طرسوس يغزو فى سبيل الله ، فى حين كان هذا الرجل وأمثاله من شيوخ البدعة ينشرون ضلالهم فى الناس ، فلم يشغل أمير المؤمنين ما هو فيه من الجهاد عما يعمل هؤلاء القاعدون المفسدون ، فأرسل بكتبه إلى وإلى بغداد إسحاق ابن إبراهيم كتاباً فى إثر كتاب يطلب إليه أن يدعو رؤوس التشبيه والتليس ويعرض عليهم أن يجيئوه إلى العقيدة الصالحة ؛ فكلهم أجاب أمير المؤمنين وأقروا على ما من الناس بأن القرآن مخلوق إلا هذا العنيد . فإن شؤمه لم يرض له بالكفر حتى أضاف إليه سوء الأدب مع إمامه . فلما علم بذلك أمير المؤمنين أمر بأن يوجه إليه بطرسوس . فلما كان على مرحلة من العسكر توفى أمير المؤمنين قبل أن يجتمع به ، ولو اجتمع به لقتله ، فأعيد هذا الضال إلى بغداد حيث أبقاها والى فى سجنها إلى الآن . . . فلو أنه مكث فى سجنه ثمانية وعشرين عاماً لا ثمانية وعشرين شهراً لكانت قليلة فى سوء أدبه مع إمامه ، فكيف بسوء أدبه مع الله ؟ .

فقال معتزلى آخر : نعم يا أمير المؤمنين ، وبلغ من سوء أدبه أن وصف خليفة الله المأمون بالفاجر ، فإنه حين أحضر إلى طرسوس ولم يبق بينه وبين جيش الإمام إلا مرحلة ، جاء أحد

الخدم فقال : « إن أمير المؤمنين سلَّ سيفاً لم يسله قبل ذلك . وإنه أقسم بقرابته من رسول الله ﷺ ، لأن لم تجبه إلى خلق القرآن ليقتلنك بهذا السيف . فما أن سمع هذا حتى جثا على ركبتيه ورمق بظرفه إلى السماء وقال : « سيدى : غرَّ هذا الفاجرُ حبلك حتى تجرأ على أوليائك بالضرب والقتل ، اللهم إن كان هذا القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤوته ! » .

قال المعتصم : لقد بلغنى ذلك وعلمت أن الناس يتحدثون بها فى الأسواق ويقولون : إن أحمد بن حنبل دعا بها فى أول الليل ، فما جاء الثلث الأخير حتى أتاه من بشره بأن أمير المؤمنين قد مات ، ويعتبرون ذلك من كرامة أحمد بن حنبل على الله .

فقال المعتزلى : وهذا يا أمير المؤمنين من الشواهد الناطقة بسذاجة العوام وعدم تمحيصهم ، وسرعة تلقيمهم الجهل والخرافة بالقبول والتأييد . . . إنهم يعتبرون أن المأمون لم يمت إلا لأن الله أجاب فيه دعوة أحمد . . . ويقولون : دعا عليه فى أول الليل فلم يأت آخره حتى جاء نبأ وفاته . مع أننا كنا معك وهو يسلم روحه الطاهرة لله قبيل العصر أو بعده بقليل ، أى أن أمير المؤمنين المأمون رضى الله عنه مات قبل أن يدعو أحمد دعوته الرجائية الشائعة . ولكن جهل العوام سوَّل لهم أن يتخذوا من ذلك كرامة تبنى عن مكانته عند الله سبحانه ، وحاشا لله أن يكون لمثل هذا الضال عنده منزلة غير منزلة أهل الضلالة والبدعة والكفر .

قال المعتصم : إنهم يقولون إن الله ألهمه الدعاء بعد موت
المؤمن ، فدعاه ، فأنابه الخبر بما دعا ليكون ذلك له تأييداً
وتثبيتاً ، فالكرامة في أن الله سبحانه ألهمه الدعاء لا في أنه أمات
المؤمن استجابة له . فقال المعتزلى : إن عقول العوام يا أمير
المؤمنين لا تطيق مثل هذا ولا تعيه . على أنه كلام يدسه رؤوس
البدعة ويعملون على ترويجه في سواد الناس سعياً إلى الفتنة .

قال المعتصم : كأن هناك إذن من يقوم على رأس الناس
ويجمعهم على الفتنة وقد قلت لى : إنه ليس هنالك من يجمعهم غير
هذا الرجل الذى لم يتصل بهم منذ ثمانية وعشرين شهراً !

فقال المعتزلى : يا أمير المؤمنين ، إنه لا يروج مثل هذا الكلام
إلا جماعة لا خطر لهم . . . إنهم فريق ممن دعاهم أمير المؤمنين
المؤمنون إلى القول بخلق القرآن فأجابوا ظاهراً وظلوا على كفرهم
وبدعتهم باطناً . . . وقد سقطت منازلهم عند جمهور الناس لما
أجابوا ولم يعد لهم عندهم قدر فلا يستطيعون أن يتصلوا بهم ولا
أن يظهروا لهم .

فقال معتزلى آخر : رعا الله أمير المؤمنين ! إن ملكه أثبت
من أن تؤثر فيه هيجة الغوغاء ، ولقد علمنا والله أن هذا الرجل
سيق من بغداد إلى طرسوس مثقلاً بأغلال الحديد ، محمولا على
جمل مهين فى حالة زرية على أعين الناس ، فما أجتراً أحد على

اختطافه أو حل وثاقه أو الغضب له . ولقد قطع به حراسه الطريق من بغداد إلى طرسوس ، فلم يكن إلا أفراد من نوازع الناس وأفناء القبائل ، ينظرون إليه ولا يتكلمون ، ومن تكلم لا يزيد على أن يقول له : « الثبات يا أحمد ! الجنة تنتظرك يا أحمد ! » ، وقد قال له أعرابي : « يا هذا ما عليك أن تقتل هنا وتدخل الجنة ها هنا ! » . ولقد حدثني بعض حراسه أنهم نزلوا به في بعض منازل الطريق فجاء رجل يقول : أيكم أحمد بن حنبل ؟ فقليل له : ها هو ذا ! فقال له : « يا هذا ، إن الله قد رضىك له وافداً ، فانظر لا يكون وفودك وفوداً مشؤوماً على المسلمين ! واعلم أن الناس إنما ينتظرونك أن تقول فيقولوا ! واعلم أننا هو الموت والجنة ! » ، فعوام الناس يا أمير المؤمنين لا يوصون هذا الرجل أكثر من أن يمد رقبته للسياف ليدخل الجنة ، ومن كان هذا شأنهم فإن القوة والشغب على السلطان لن يخطر لهم ببال .

واطمأن المعتصم إلى هذا الكلام ، فاستمر المعتزلة في إيغار صدره على أحمد بن حنبل ، فقال أحدهم :

وإذا كانت جماهير الغوغاء والرعاع بهذا الضعف فمن الخير أن يعجل أمير المؤمنين بامتحان هذا الرجل ، فإن أجاب بخلق القرآن أجاب الناس معه وكان ذلك أرسخ لملك أمير المؤمنين ، وإن أصر على ضلاله أنفذ فيه ما كان أمير المؤمنين المأمون يريد إنفاذه .

وقال معتزلى آخر : ولقد كان أمير المؤمنين لا يريد أن ينفذ فيه غير القتل ، دون أن يلقى بالا لسخف العامة ولغتهم ؛ وأنت يا أمير المؤمنين قد حباك الله بما حبا به المأمون من شدة البأس وجراءة النفس وشجاعة القلب والتمرس بفنون الحرب وألوان الفروسية ، حتى سارت بذكرك الأبناء ، فما من فارس إلا ويرى عزّة في الإقرار لك بالفروسية ، وما من بطل إلا ويراك إمامه المتقدم عليه . . . فإذا كان أمير المؤمنين المأمون قد أسقط هؤلاء العوام من حسابه ، فوالانا المعتصم بذلك أجدر ، وعليه أقدر . وإذا كان هؤلاء العوام لم يستطيعوا أن يمدوا لهذا الرجل يداً بمعوثة في زمن المأمون ، فهم عن ذلك في عهد مولانا المعتصم أعجز ، وله أهيب ! .

وقال آخر : وما حسن يا أمير المؤمنين أن تملى لهذا الرجل ، فإنه لا يزداد مع الأيام إلا غياً وسوء أدب . . . ! لقد غره حلم أخيك المأمون حتى اجتراً عليه وقال عنه إنه فاجر ، وها هو ذا بعد أن مضى في سجنك وفي قبضتك ثمانية وعشرين شهراً يحكم على رسلك الذين ترسلهم إليه في السجن بأنهم كفر ، ويوشك — لو أمليت له — أن يرفع عقيرته بكفر أمير المؤمنين .

فتجههم وجه المعتصم ، ونظر إلى الرجل كأنه يستزيده بيان ما يقول ، فقال المعتزلى : لقد ذهب إلى مناظرته يا أمير المؤمنين

أحمد بن رباح وأبو شعيب الحجاج لعله يرجع عن بدعته وكفره .
وتلطف إسحاق بن إبراهيم فاخرجه من السجن وجعل المناظرة
في داره بحضور رسول من قبله ، فلم يزد التلطف إلا إصراراً ،
ولم تزد العناية أمير المؤمنين به إلا إمعاناً في سوء أدبه . فلم يكن
من إسحاق بن إبراهيم إلا أن رده إلى السجن مقيداً بقيدتين بعد
أن كان مقيداً بقيد واحد .

وعرضت عليه الكرامة في اليوم التالي ، وأخرج من سجنه
في قيديه الثقيلين إلى دار إسحاق حيث ناظره رسولا أمير المؤمنين
فيما ناظرهما به في اليوم السابق ، ولكنه أصر على أن القرآن غير
مخلوق . فأعاده إسحاق إلى السجن بقيد ثالث .

ثم اتاحت له الفرصة في اليوم الثالث ليرى مبلغ حلم أمير
المؤمنين ، فما كان لهذا الحلم من أثر إلا أنه قال لأحد الرسولين
« يا كافر ، لقد كفرت » ، فإذا تركناه يا أمير المؤمنين على ما هو
عليه فما يمنعه غداً من أن يقول هذا لمن هو أكبر من ذلك .

هذا إلى أن أنباء هذه المناظرات سرعان ما تتسرب إلى
الخارج مبالغاً فيها ، فيعجب بها العامة وينسجون حول المبالغات
مبالغات ، فيشتد الخطب وتعظم البلبلة .

قال المعتصم : وكيف ساع لهذا الضال المبتدع أن يكفر رسلتي ؟
قال المعتزلي : هذا دأبه في سوء الأدب .

قال المعتصم : لقد أمرت بإحضار هذا الرجل من بغداد . فأين هو ؟ أدخلوه ! .

فدخل أحمد بن حنبل . . . شيخ أسمر اللون ، مديد القامة ، قد قوسه مر السنين وإلحاح المحن وتعاقب السفرات الطوال سيراً على القدم . . . يجلله مشيب وقور ، ويسطع من وجهه ورع صارم جاد لا يلبث من يراه أن يتأثر به .

ونظر المعتصم يتفرس في وجه القادم عليه ، فإذا طلعة الشيخ الجليل تروعه بما لم يجد له مثيلاً في حياته . . . لقد أحس كأن قلبه يتحول في صدره من مكان إلى مكان . إن ابن أبي دؤاد على طول صحبته للخليفة ، وعلى غزارة علمه وبراعة منطقته لم يؤثر في نفسه قط بمثل ما أثرت طلعة ذلك الشيخ الجليل الورع . . . وارتعشت نبرات صوت الإمام المريض الهزيل وهو يحيي أمير المؤمنين : السلام عليكم يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته .

وأحس المعتصم كأن نبرة الصوت الجليل المرتعش تمازج قلبه هيبة ، وتغسل من نفسه الموحدة ، فلم يتمالك أن قال للإمام : أدن . فاستمر الإمام يدنو وهو يتعثر في أقياده ، وكان قد ربطها في تكة سرواله وأمسك التكة بيده يرفع بها ثقل الأقياد عن قدميه ، فلم يكن ذلك المنظر المهين الأليم بما يتلام مع الجلال البادئ على الشيخ المهيّب ؛ فرق له المعتصم وزاد تأثره ، وقال : أدن .

وما زال المعتصم يستدنيه حتى قال له :

— اجلس .

فجلس أحمد والقوم صامتون مأخوذون . فالتفت المعتصم إلى المعتزلة وقال : أليس قد زعمتم لي أنه شاب حدث السن ، وهذا شيخ مكتهل ؟ !

فسكت المعتزلة ولم يجيبوا بشيء .

فيسترد أحمد بن حنبل قوته . ويأنس بعض الشيء إلى إصناف المعتصم فيقول : أتأذن لي يا أمير المؤمنين في الكلام ؟

المعتصم : تكلم

أحمد : إلام دعا ابن عمك رسول الله ﷺ ؟

المعتصم : دعا إلى شهادة أن لا إله إلا الله .

أحمد : فأنا يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله .

ونزلت كلمات أحمد في صدق لهجته وعمق يقينه على قلب

المعتصم كأن لم يسمع أحداً ينطق بالشهادة بين يديه إلا اليوم . . .

واستطرد أحمد رضى الله عنه يقول :

— إن هؤلاء يا أمير المؤمنين يدعونني أن أقول : إن القرآن

مخلوق ، وهو شيء لا أجده في كتاب الله ، ولا في سنة رسول الله

ﷺ . يا أمير المؤمنين : حدثنا يحيى بن سعيد عن شعبة ، قال حدثني

أبو حمزة ، قال ، سمعت ابن عباس يقول ، إن وفد عبد القيس لما قدموا

على رسول الله ﷺ أمرهم بالآيمان بالله ، فقال أتدرون ما الإيمان بالله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وأن تعطوا الخس من المخرج ، فهذا ما يرويه جدك ابن عباس عن ابن عمك رسول الله ﷺ . وهو يعلم الناس الإيمان ، وليس فيه شيء مما يدعيه هؤلاء من خلق القرآن .

وتحذر الإسلام الصافي الذي لا يشوبه كدر ولا تعقيد إلى قلب المعتصم الساذج من فم هذا الإمام الورع الصادق فلم يتمالك المعتصم أن قال :

— إني لم آمر فيك بشيء ، ولولا أني وجدتك في يد من كان قبلي لما تعرضت لك . ثم أطرق قليلا وكأنه قد ضجر من تلك الفلسفة التي يراد إدخالها على عقائد الناس وهو نفسه ليس منها في قليل ولا كثير . والتفت إلى عبد الرحمن بن إسحاق فقال له :

ألم أمرك أن ترفع المحنة ؟

فقال أحمد بن حنبل في نفسه : الله أكبر !! إن في هذا لفرجا

للسليين !

وكان المعتصم رأى أنه لم ينصف المعتزلة ، وأنه لم ينفذ وصية أخيه المأمون إليه في مناصرة المعتزلة ، وقع ماعليه أحمد بن حنبل وأضرابه ، فاستدرك قائلاً لهم :

— ناظروه وكلوه .

فأبطأ المعتزلة وكأنهم أخذوا بما فجأهم من أمر الخليفة ، فقال
المعتصم :

— ناظره يا عبد الرحمن ، كله !

— عبد الرحمن : ماتقول في القرآن ؟

— أحمد بن حنبل : لا يجيب .

— المعتصم : أجب يا أحمد .

— أحمد بن حنبل يسأل عبد الرحمن : ماتقول في علم الله ؟

— عبد الرحمن : لا يجيب .

— أحمد بن حنبل : إن القرآن من علم الله ، فمن زعم أن

القرآن مخلوق ، فقد زعم أن علم الله مخلوق ، ومن قال
بذلك فقد كفر .

— عبد الرحمن : لا يجيب

— المعتزلة : يا أمير المؤمنين لقد كفرنا وكفرك ، ولقد كفر

بهذا الكلام رسولك بالأمس حين قال له : إن علم الله مخلوق

— فلا يلتفت المعتصم إلى تحريشهم

— فيرتبك المعتزلة قليلا ، ثم ينبرى عبد الرحمن فيقول :

— إن الله كان في الأزل ولم يكن معه القرآن .

— أحمد بن حنبل : لقد قلت إن القرآن من علم الله ، فإذا قال

قائل كان الله ولا قرآن معه فكأنه قال : كان الله ولا علم له .

— أحمد بن أبي دؤاد : هو ضال مبتدع يا أمير المؤمنين
وهؤلاء قضاتك والفقهاء فسلهم !

— المعتصم : ماتقولون فيه ؟

— الفقهاء والقضاة : هو ضال مضل مبتدع ...

فيتلطف المعتصم إلى الإمام ويقول له :

— اجنبي يا أحمد إلى هذا حتى أجعلك من خاصتي ومن
يطأ بساطي ...

— أحمد بن حنبل : يا أمير المؤمنين ، يأتوني بآية من كتاب
الله أو سنة رسوله ﷺ حتى أجيبهم إليها .

— أحمد بن أبي دؤاد : فأنت لاتقول إلا ما في كتاب الله
وسنة رسوله ؟

— أحمد بن حنبل : وهل يقوم الإسلام إلا بهما ؟

— رجل من المعتزلة : إن الله يقول : « خالق كل شيء » .
والقرآن شيء ، فهو - إذا - مخلوق .

— أحمد بن حنبل : إن هذه الآية عامة أريد بها التخصص
لا العموم كقوله تعالى عن الريح التي أهلك بها قوم هود : « تدمر
كل شيء بأمر ربها » ، فهل دمرت كل شيء حقاً أو إنها لم تدمر
إلا ما أراد الله !

— المعتزلى : لا يجيب .

— معتزلى آخر يقول : إن الله يقول : « ما يأتهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون » ، فهل يكون محدثا إلا المخلوق ؟

— أحمد بن حنبل : إن الذكر الذى هو فى القرآن جاء فى قوله سبحانه « والقرآن ذى الذكر » فهو هنا معرف بالآلف والسلام وفى الآية الأولى بدون ألف ولام فهذه غير تلك .

— أحد المعتزلة : إن عمران بن حصين يروى عن رسول الله ﷺ قوله : « إن الله خلق الذكر » . وفى ذلك تقرير من النبى ﷺ عليه السلام بأن القرآن مخلوق .

— أحمد بن حنبل : أخطأت ، فالرواية التى رويناهما عن عمران وغيره من ثقات أهل الحديث هى : « إن الله كتب الذكر » .

— معتزلى آخر : أليس رسول الله ﷺ يقول : « تقرب إلى الله بما استطعت ، فإنك لن تقترب إليه بشيء هو أحب إليه من كلامه » .

— أحمد بن حنبل : بلى ، قد روى ذلك عن رسول الله ﷺ .

— المعتزلى : إن فيه دليلا على أن القرآن مخلوق !

— أحمد بن حنبل : لست أجده فى هذا الدليل .

— المعتزلى : إذا قرأت القرآن لتتقرب به إلى الله ، ألسنت

تتلو كلمات مؤلفة من حروف وأصوات ؟ وهل يتألف من حروف وأصوات إلا الكلام المخلوق ، فهل تجد لك مفرا بعد إذ أمرنا

النبي ﷺ أن تتقرب إلى الله بتلك الالفاظ إلا أن تسلم بأن القرآن مخلوق !

— أحمد بن حنبل : القرآن كلام الله قديم غير مخلوق ، وأما أفعالنا فيه إذا كتبناه أو تلفظنا به فهي مخلوقة ، ورسول الله ﷺ يقول : « زينوا القرآن بأصواتكم » . فالقرآن إذاً — غير أصواتنا المخلوقة التي نزيه بها ،.. الكلام كلام الباري والصوت صوت القاريء .

— معزلى آخر : إن ابن مسعود يروى عن النبي ﷺ : ما خلق الله من الجنة ولا نار ولا سماء ولا أرض أعظم من آية الكرسي ، وهذا صريح في أن آية الكرسي مخلوقة ، وهي من القرآن .

— أحمد بن حنبل : فهل تجد في حديث رسول الله ﷺ أن الخلق وقع على آية الكرسي ؟ إن الحديث صريح في أن الخلق إنما وقع على الجنة والنار والأرض والسماء ولم يقع على القرآن .

— أحمد بن أبي دؤاد : إن تشبثك بأن القرآن كلام الله غير مخلوق معناه أنك تنسب إلى الله جوارح تكلم بها كالمخلوقين ، وتشبيهه الله بالمخلوقات كفر .

— أحمد بن حنبل : هو أحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، لا عدل له ولا شبيه ، وهو كما وصف نفسه ... حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سالم عن أبيه أن النبي ﷺ قال : « إن الله كلم موسى

بمائة ألف كلمة ، وعشرين ألف كلمة ، وثلاثمائة كلمة ، وثلاث عشرة كلمة ، فكان الكلام من الله والاستماع من موسى . فقال موسى : أى رب أنت الذى تكلمنى أم غيرك ؟ قال الله تعالى : يا موسى أنا أكلمك لارسل بينى وبينك . فهذا ما يخبر به رسول الله عن ربه ، وأنا ما أقول إلا ما يقول رسول الله ﷺ .

— أحد المعتزلة : كذبت على رسول الله .

— أحمد بن حنبل : إن يك هذا كذباً منى على رسول الله فقد قال الله تعالى . وكلم الله موسى تكليماً . وقال . ولكن حق القول منى لأملآن جهنم من الجنة والناس أجمعين . ، فهو قول منه سبحانه وليس خلقاً .

وهكذا ظلوا يسألونه وهو يجيب ويعلو صوته عليهم . حتى اقترب الزوال دون أن يفحموه أو يلزموه الحجة ، فقال لهم المعتصم : قوموا واخلونى مع أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن إسحاق ...

وكان المعتصم قد أعجب بأحمد بن حنبل ، فلما خلا به قال : أما تعرف صالحاً الرشيدى ؟ كان مؤدبى . وكان فى هذا الموضع من الدار جالساً مرة ، فتكلم وذكر القرآن فخالقنى . فأمرت به فسحب ووطىء ، ولم يشفع له أنه معلى ... ولكن لا أفعل بك ما فعلته به ... إني لم أكن أعرفك إذ لم تكن تأتينا مع من يأتى ...

فقال عبد الرحمن بن إسحاق : يا أمير المؤمنين ، إني أعرفه .

منذ ثلاثين سنة ، إنه يرى طاعتك ، والحج والجهاد معك وهو ملازم منزله ...

فقال المعتصم : والله إنه لفقيه ، وإنه لعالم ، وإنى ليسرنى أن يكون معى يرد على أهل الملك ... ولئن أجابنى إلى شىء مما أدعوه إليه لأطلقن عنه القيود بيدى ، ولأركبن إليه بجندى ولأقدمنه حتى أطأ عقبه ...

— أحمد بن حنبل يسمع كل ذلك وهو صامت .
فيلتفت إليه المعتصم ويقول : ويحك يا أحمد . ماتقول فسيما أعرض عليك ؟

— فقال أحمد بن حنبل : يا أمير المؤمنين ، أعطونى شيئاً من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ ۱۱

فلما طال المجلس ضجر المعتصم وقام . وأعيد الإمام إلى معتقله ، وذهب إليه رجلان من أتباع ابن أبى دؤاد لمناظرته لعله يجيب إلى خلق القرآن ... وجاءت مائدة ، فأكل الرجلان ، وأما أحمد فجعل يتعلل حتى رفعت ...

وذهب أحمد بن أبى دؤاد إلى الإمام فى معتقله ، وقال له : والله لقد كتب اسمك فى السبعة الذين قتلوا ولكنى محوته ، ولقد ساءنى أخذهم إياك ... واعلم أنه ليس السيف ، إنه السوط ، والضرب بعد الضرب ... فانظر ماتقول ، وإنى لا أرى لك إلا أن

تحيب أمير المؤمنين

فلا يزيد الإمام على أن يقول : إيتوني بشيء من كتاب الله
أو سنة رسوله ﷺ ...

وخرج أحمد بن أبي دؤاد ، ولم يلبث أن جاء رسول ينادى
أحمد بن عمار ، صاحب الدار التي اتخذت معتقلا للإمام ؛ فخرج
معه وعاد يقول : إن أمير المؤمنين يقول لك : أجبني حتى أجيء
إليك بنفسى فأطلق عنك يدي ... فلا يزيد الإمام على قوله :
إيتوني بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ...

وما زالت الرسل تأتي أحمد بن عمار ، فيذهب لمقابلة الخليفة
ليعود إلى الإمام حاملا رجاءه حتى انقضى النهار وشر من الليل .
فلما كان اليوم الثاني ، أدخل على المعتصم وجرت المناظرة
بحضرته ، وكانوا يهربون من منازلة ابن حنبل في ميدان الكتاب
والسنة إلى ميدان الفلسفة ، فيقول لهم : لا أدري ما تقولون ،
فأتوني بشيء من كلام الله أو سنة رسول الله ﷺ ، أو خبر أو
أثر ... ! فيقولون : يا أمير المؤمنين ، إذا توجهت له الحجة علينا
وثب ، وإذا كلمناه بشيء يقول : لا أدري ما هذا ...

فيقول المعتصم : يا أحمد إنني عليك شفيق ...
ويقول أحمد بن أبي دؤاد : يا أمير المؤمنين والله لئن أجابك
لهو أحب إلى من مائة ألف دينار ، ومائة ألف دينار ، ومائة ألف

دينار فيعد ماشاء الله من ذلك ...

ولما كان الزوال أمرهم المعتصم بالانصراف ، ولم يبق إلا أحمد بن حنبل وعبد الرحمن بن إسحاق ، ودار الكلام بينهم ، المعتصم يتلطف ويلين ، وعبد الرحمن يذكر مناقب أحمد وفضله ، وأحمد يقول : بيني وبينهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا أجيبهم إلا إلى شيء منها ، وطال المجلس فقال المعتصم :

— أئدعو أحمد بن أبي دؤاد ؟

فقال أحمد بن حنبل : ذلك إليك يا أمير المؤمنين .

فحضر ابن أبي دؤاد واشترك في المناظرة ، فلما امتد المجلس على غير فائدة لهم قام المعتصم ، وأعيد الإمام إلى معتقله ، ومالبت أن دخل عليه الرجلان اللذان دخلا عليه بالأمس لمناظرته ، وجعلا يكلمانه حتى حان وقت الإفطار فجيء بطعام على نحو مما أتى به في الليلة السابقة ، فأفطر الرجلان وجعل الإمام يتعلل ...

فلما رفع الطعام جاء رسول الخليفة يستدعي أحمد بن عمار صاحب دار المعتقل ، فذهب ، وعاد فقال للإمام : يقول لك أمير المؤمنين أجبني حتى أحضر إليك بنفسى ... إلخ . فلا يزيد على أن يقول لهم : كتاب الله وسنة رسوله .

وكانت بغداد خلال هذين اليومين شعلة نار متقدة تملأها الإشاعات والهرج والمرج ، وامتألت سامرا - مقر قصر الخلافة -

بوفود عامة أهل بغداد وخاصتهم ، فصارت بهم كالبحر الزاخر ،
وليس منهم رجل إلا وعظفه مع أحمد بن حنبل ، وسخطه على
الخليفة وعلى أحمد بن أبي دؤاد وسائر المعتزلة ...

وكانت أنباء ذلك كله تبلغ الخليفة فيشعر كأن ريحاً عاتية
توشك أن تهب عليه فتقتلع عرشه ويهوى به إلى مكان سحق ،
فيأخذه الخوف ويلجأ إلى ملاينة الإمام لعله أن يجيب فتنتهى المحنة
وتهدأ ثائرة الناس ، ولكن الإمام لا يعنيه ملاينة الخليفة ، ولا
مؤازرة الجماهير ، فالأمر لديه أكبر من ذلك ، هو احتفاظه لله
بما استرعى العلماء من أمانة ، فإن حفظ وصبر كان قدومه على الله
قدوماً كريماً وله اجر ما امتحن به ، وإذا فرط وضع كان قدومه
على الله قدوماً مهيناً ، وحمل بين يديه تبعة تلك الجماهير التي ستقلده
فيما يقول من خلق القرآن .

وجعلت رسل الخليفة في تلك الليلة العاصفة تأتي لاستدعاء
أحمد بن عمار ، وجعل أحمد بن عمار يمضي ويأتي بكلام من أمير
المؤمنين ، دون أن يشمر ذلك شيئاً ، فجاء أحمد بن أبي دؤاد ، فقال
يا ابن حنبل ، إنه قد حلف أن يضربك ضرباً ، وأن يجلسك في
موضع لا ترى فيه الشمس . فقال أحمد بن حنبل : فماذا أصنع ؟
قال : تجيب الخليفة إلى ما يدعوك إليه ، فقال : لا ... إلا بشيء من
كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ...

وباتت بغداد وسامرا سامرتين تتحدثان بمحنة الإمام الجليل ..
أما الإمام فقد غفا غفوة قام على أثرها نسياً إلى وضوئه وتهجدته
وقراءته ، فلما صلى الفجر وأسفر النور أصبح اليوم الثالث ، أحست
بصيرته شيئاً لا تراه الأبصار ... أحست مقادير المحنة كأنها شاخصة
في الفضاء تنتظر أن تنفذ فيه ، فقال : « لخلق أن يحدث في هذا
اليوم من أمرى شيء » .

قال أحمد بن حنبل : وكنت قد أخرجت تكتي من سراويلي
فشددت بها قيود الحديد في قدمي أحملها بها إذا توجهت إلى الخليفة .
فلما كان صبح يوم المحنة قلت : لخلق أن يحدث في هذا اليوم من
أمرى شيء ، وكنت بلا سراويل ، فخشيت إن حدث شيء أن
أتعري ، فأعدت التكة إلى سراويلي وشددتها على ، وطلبت من أحد
الموكلين بي خيطاً أشد به الأقياد ... !

وعلا النهار . وأصيب المعتصم بشعور مضطرب ، فهو يريد أن
يبطش بابن حنبل ، ولكن هيبة الجماهير تخيفه فتقبض يده عما
يريد ... ولكنه الفارس المعلم ، الذي لم يعتد أن يرى نفسه جباناً
في موقف من المواقف ، فكيف يستر ضعفه هذا اليوم عن أنظار
من حوله ؟ ! لقد هداه شعوره المضطرب إلى أن يملأ ردهات
القصر وساحاته ومداخله ومخارجه بصنوف الجنود حاملين ألوان
الأسلحة ، لابسين لامة الحرب الكاملة ، ثم أقفد أمره في رجلين

من لا يقولون بخلق القرآن فقتلها ، وخيل إليه أنه قد سيطر على الموقف وظفر بإعجاب من حوله ، وحسب أن ذلك خلق أن يلقى في روع ابن حنبل أن الأمر جد لاهزل ، فيثني عن عناده ويحبب إلى ما يدعو إليه !

قال الإمام أحمد : فلما شددت قيودي بالخيطة الذي جاءوا به طلبت إلى مجلس الخليفة ، فجعلوا يملكون من ساحة إلى ساحة ، وقوم معهم السيوف ، وقوم معهم السياط ، وغير ذلك من الزى والسلاح . وقد حشيت الدار بالجند ، ولم يكن في اليومين الماضيين كبير أحد من هؤلاء ، حتى إذا صرت إلى الخليفة قال : ناظروه . وجرت المناظرة على نحو ما جرت عليه في اليومين السابقين ، حتى إذا جاء وقت الزوال خلا بي وبعبد الرحمن ، فقال لي : ويحك يا أحمد ، أنا والله عليك شفيق ، وإني لأشفق عليك مثل شفقتي على هارون ابني ، فأجبنى ... فقلت : يا أمير المؤمنين ، أعطوني شيئاً من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ ، فلما طال المجلس ضجر وقام . وكان يريد أن يصرف المحنة عن أحمد لما يجد من الخوف على عرشه ، ولكن ابن أبي دؤاد قال له : « يا أمير المؤمنين ، إن تركته قيل إنك تركت مذهب المأمون وسخطت قوله » ... وقال إسحاق ابن إبراهيم نائب بغداد : يا أمير المؤمنين ليس من تدبير الخلافة أن يخلى سبيله فيقال : إنه غلب خليفتي . فعند ذلك حمى الخليفة

واشدد غضبه وأقبل على أحمد بن حنبل وقال : لعنك الله ، طمعت فيك فلم تجبني ... خذوه اخلعوه ، اسجنوه .

قال الإمام أحمد : فأخذت وسحبته وخلعت وجيء بالعقابين .
 أى عدة العذاب التى يشد إليها المبتلى ، وكان معى شعرتان من شعر
 النبى ﷺ فصررتهما فى كم قبصى ، فقال إسحاق بن إبراهيم : ما هذا
 المصروع فى كمك ، فقلت هما شعرتان من شعر النبى ﷺ فأراد بعض
 القوم أن يحرق القميص فنهاهم عنه ... فلما شددت إلى العقابين ،
 وجيء بالسياط نظر إليها الخليفة فلم تعجبه فأمر بأشد منها وأقوى .
 فجيء له بما أراد ، واحضر الجلادون الغلاظ ، فقلت : يا أمير
 المؤمنين ، الله الله ، بما تستحل دمي وأنا أشهد أن لا إله إلا الله
 وأن محمداً رسول الله ولم آت شيئاً مما يهدر الدم .. ؟ يا أمير المؤمنين
 أذكر وقوفك بين يدى الله كوقوفى بين يديك !

قال الإمام أحمد : فكأنه أمسك ومال إلى صرف المحنة ،
 ولكنهم لم يزالوا به يقولون له : يا أمير المؤمنين ، إنه ضال مضل
 كافر ، وإن دمه فى رقابنا حتى أقنعوه بإفناذ المحنة ، فجيء له بكرسى
 وأحمد بن أبى دؤاد واقف على رأسه ، فتقدم الضارب الاول ومعه
 سوطه ، فقال المعتصم : شد قطع الله يدك ! فشد الرجل بسوطين
 ثم تنحى ؛ وتقدم جلاد آخر ، وآخر ، كل يقول له المعتصم :
 شد وأوجع قطع الله يدك ! فشد كل بسوطين ويتنحى وتوالى

السياط كانها جمر جهنم . وأحسن أحمد بتكة سراويله تحور خيوطها تحت الضربات القاطعة فلم يبق فيها إلا خيط أو خيطان ، فطرح ببصره إلى السماء وقال : يا غياث المستغيثين ، يا إله العالمين ! إن كنت تعلم انى قائم لك بحق فلا تهتك لى عورة !! وثبت الخيط الرقيق لما لم تثبت له خيوط التكة كلها ، وستر الله سوءة الامام أن تنكشف

قال الإمام : واستمر الجلادون يشدون بسياطهم حتى أغشى على . . فأمسكوا حتى أفقت وسكن عنى الضرب . فقام الى المعتصم وقال : ويحك يا أحمد أجبنى حتى أطلق عنك بنفسى ، وهم محيطون بى ، فيقول لى أحدهم : ويحك ، إمامك قائم على رأسك فأجبه ، وينخسنى آخر بقائم سيفه ويقول تريد ان تغلب هؤلاء كلهم ؟ فأقول : لا أجيب إلا لشيء من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ . . . فيعود المعتصم إلى كرسيه ويقول للجلاد : شد وأوجع قطع الله يدك ، وأخذ الجلادون يتبع كل منهم سابقه ، كل يضرب سوطين ويتنحى لمن بعده ، حتى يشتد بى الضرب ، ويعظم الألم ، فيذهب عقلى ويغمى على

حتى إذا افقت وعاد إلى عقلى ، قام إلى نفسه وقال مثل مقالته . فلا أجيبه إلى ما يدعونى إليه ، فيقول عبد الرحمن بن إسحاق لى : من صنع بنفسه من أصحابك فى هذا الأمر ما صنعت أنت بنفسك !!

هذا يحيى بن معين وهذا أبو خيشمة ، وهذا فلان وهذا فلان ، وجعل يعدد أسماء من أجاب . فلا أجيبه إلا بنحو مما كنت أقول لهم ... فقال المعتصم للجلاد : شد وأوجع ، فأقبل على الجلادون كل يضرب بسوطيه ويتنحى

ثم جاء إلى الثالثة فدعاني فلم أعقل ما قال من شدة الضرب ، ثم أعادوا الضرب فذهب عقلي فلم أحس به ، فأرعبه ذلك من أمرى .. وكان النبأ قد تسرب إلى الجماهير الزاخرة ؛ فضج الناس وهاجوا . وعظم عليهم الخطب ، فخاف المعتصم وأمر بإطلاقه لفوره .

قال ميمون بن أصبغ : « أخرج أحمد بعد أن اجتمع الناس وضجوا حتى خاف السلطان » . وقال المعتصم بعد أن أطلقه : « لو لم افعل ذلك لوقع شر لا أقدر على دفعه » .

قال الإمام أحمد : فلما أفقت لم أشعر إلا وأنا في حجرة من بيت وقد أطلقت الأقياد من رجلى وكان ذلك في اليوم الخامس والعشرين من رمضان من سنة إحدى وعشرين ومائتين .

وحمل من دار الخلافة إلى دار إسحاق بن إبراهيم نائب بغداد ، وهو صائم ، فأتوه بسويق ليفطر من الضعف فأبى ، وأتم صومه . ولما حضرت صلاة الظهر صلى معهم ، فقال له ابن سماعة القاضي : « وصلت في دمك ؟ » فقال له أحمد : « قد صلى عمر وجرحه يشب دماء » . فسكت

وعاد أحمد إلى منزله لأول مرة بعد أن غادره منذ أكثر من ثمانية وعشرين شهراً ، وجاء الجراح من قبل الخليفة يعالج له جراحه وكان المعتصم يخشى أن يصاب أحمد بأذى من تلك الجراح ، فكان يسأل عنه نائب بغداد كل يوم ، وكان النائب يرسل من يسأل عنه كل يوم ، فلما شفى فرح المعتصم وسكن خوفه على ملكه .

وسما أحمد عن الحقد والضغينة ، فلم يذكر أحداً ممن آذوه بسوء ، وجعل كلا منهم في حل إلا أهل البدعة ، فقال له ابنه صالح في ذلك ، فقال : يا بني (وليعفوا وليصفحوا) ماذا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسبيلك ؟ وقد قال تعالى (فمن عفا وأصلح فأجره على الله) فإذا كان يوم القيامة وجئت الأمم بين يدي رب العالمين ، نودوا : ليقم من كان أجره على الله ! فلا يقوم إلا من عفا في الدنيا ، وإني لأرجو أن أكون واحداً منهم !!

في هذا الأفق الفسيح العالی كان أحمد رضى الله عنه يسبح بروحه وذممه ، فهل كان خصومه بعد أن شفوا صدورهم بعذابه وآلامه وسجنه يذهبون هذا المذهب ؟ .

إنهم ما حسدوا أحمد على شيء ، حسدوا على هذه المحنة ، لا لأنه صبر على الضرب والسجن واستوجب مثوبة الله ، بل لأن ذكره طار كل مطار في الآفاق ، فالتاس في أمصار الإسلام وأقطاره النائية معجبون بثباته ، وورعه ، وشجاعته ، وحفاظه على دين الله ، يتلقفون

أخبار محنته في شغف وعطف وتأثر ، ويسمعون قصص تلك البطولة يروها كل طارئ يقرأ عليهم من دار الخلافة في همس واستخفاء ، ولا يلبسون أن ينثنوا بها إلى مجالسهم وسميرهم فتكون زادهم من أحاديث السياسة والدين والعلم والموعظة . حتى فشا ذكر أحمد وتعصب الناس لرأيه في محنة خلق القرآن ، وحتى اضطرت ولاية الأقاليم وأمرام الأمصار إلى اضطهاد العلماء والزهاد ، وسجنهم وضربهم إذا لم يقرروا بأن القرآن مخلوق فاشتد الكرب بالناس ، واشتد تعصبهم لرأى أحمد ، واضطرت كثير من العلماء والزهاد إلى الفرار والاستخفاء من وجه الظلم والمحنة . . .

أما بغداد - عاصمة الملك - ومقر البطل الورع - فلم يكن فيها قلب ، فيما عدا قلوب أهل البدعة ، إلا وسكنه أحمد . . . ولم يكن فيها نفس إلا والامير عليها رأى أحمد ، ولم يكن فيها لسان ، أو دار أو مجلس ، أو ندوة إلا وذكر أحمد والثناء عليه والإعجاب به ، هو القربة التي يتقربون بها إلى الله جل شأنه . . .

نعم ، كان ذلك شأنه ببغداد ، لدى خاصة الناس وعامتهم على السواء . فهذا مجلس من المجالس تذكر فيه مناقب أحمد ، فيقول يحيى ابن معين : « لو جلسنا مجالسنا كلها ثنى على أحمد ما ذكرنا فضائله بكما لها . . . وهذا مجلس غيره يقول فيه إسحاق بن راهويه : « لو لا أحمد بن حنبل وبذله نفسه لما بذلها له ، لذهب الإسلام . . وهذا

مجلس ثالث يقولون فيه لبشر بن الحارث وهو من هو : هلا تكلمت أيام ضرب أحمد بن حنبل ! فيقول : « أتأمروني أن أقوم مقام الأنبياء ؟ إن أحمد أدخل الكير فخرج ذهبه حمراء ، ... »

أما العامة من أهل بغداد ، فلا سبيل إلى تصوير سيطرة أحمد على قلوبهم ومشاعرهم ، ويكفى أن نعلم أنه بعد مرور مائة عام على المحنة كان الحنابلة هم المسيطرين على عامة شئون بغداد . يكسبون دور القواد والعامة ، فإذا وجدوا نيزاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها ، وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا في البيع والشراء ، وفي مشى الرجال مع الغلمان الصغار ، كما يقول أبو الفداء في تاريخه ذلك ذكره بين أهل الإسلام ، أما ذكره في سواهم والثقة به . فحسبك منه ما كان يرويه نوح بن حبيب ، قال كان عندنا - يعني في بلدنا - امرأتان مجوسيتان ، فاختصمتا في مواريث لهما إلى رجل من المسلمين ليقضى بينهما ، فقضى لواحدة منهما على الأخرى ، فقالت له الأخرى : « إن كنت قضيت علي بقضاء أحمد بن حنبل فقد رضيت ، وإلا فإني لا أرضى ، قال نوح : فحدثت به أهل طرسوس والشامات .

لقد أراد خصومه أن يخفتوا صوته ، ويطفئوا نوره ؛ فأبى الله إلا أن ينطلق هذا النور في الآفاق ، وأن يمتد موج هذا الصوت القوي إلى كل أذن وكل قلب .. وما سعى أحمد إلى شيء من ذلك .

وما كان له فيه من أرب ، فنفسه مشغولة بتحصيل حظها من الله متجردة لتنسيق خواطرها ومشاعرها مع مرضاته سبحانه ، أما ذلك الذكر الذى طار له فى الآفاق ، وذلك الجاه الذى انعقد له فى الناس ، فلم يكن له فى نفسه من أثر ، فإن الالتفات إليه ، والتجاوب معه موجب للسقوط من عين الله ، وما كان أحمد ليشتري الجاه عند الناس بالجاء عن الله ، ويجعل سلعته فى ذلك دين الله جل جلاله ... إنها نفس تخلق فى ملكوت رفيع لا يصل إليها فيه للناس همس أو ضجيج ... ومع ذلك ، هل سلم من دسائس خصومه وأذاهم ؟

لقد أزعجهم وأكل قلوبهم أن تكشففت المحنة عن ميلاد عملاق لم يكن فى حسابهم أن يولد ... فاجتمعوا بعد خروجه من سجنه وإبلاله من مرض محنته ليروا رأيهم فيه ... !

ولم يفزعوا إلى المعتصم فيما يريدون ، فإنهم يعلمون عزوفه عن المشاركة فى محنة جديدة ، ويعلمون أنه ما حمد الله على شيء قدر ما حمده على شفاء أحمد ، لما يرى فى ذلك من استتباب ملكه ، وسكون رعيته من الفزع والثورة ... ولم يكن فى مقدورهم أن ينالوا منه أو يفعلوا معه أكثر من التضيق عليه ، والحجر على حريته ، واعتقاله فى داره ، لا يعشى سوقا ، ولا يلم بمجلس ، ولا يذهب لزيارة أحد من الناس ... بل لا يخرج لصلاة جمعة ولا لصلاة جماعة ، كل

صلاته يؤديها في بيته .

لقد صورت لهم حلومهم المذعورة ، وقلوبهم الطائشة الفزعة
أن هناك خطراً يهدد جاههم ونفوذهم في الدولة إن اتصل هذا
القديس الروحاني بالجمهور واتصل الجمهور به ، فأداهم التآمر عليه
إلى اعتقاله في داره على الصورة التي ذكرنا . أو . تحديد محل
إقامته ، على ما جرى به التعبير في استعمالنا الحديث .

ووكّل المتآمرون تنفيذ قرارهم إلى إسحاق بن إبراهيم نائب
بغداد العنيد ^(١) ، والمساهم في محنة الامام باو في نصيب . فأرسل
إلى الامام يأمره بالالتزام بداره لا يبرحها لصلاة جمعة ، ولا لصلاة
جماعة ، ولا لما هو أجل من ذلك أو أقل

وكان الامام رضى الله عنه يزهد في غشيان المجالس ولا يجد في
طبعه نشاطاً إلى الامام بمجتمعات الناس ، فلم يزعه قرار الاعتقال
من هذه الوجهة ، لكنه ألم أشد الألم ، واغتم غاية الغم لحرمانه
من المسجد . وتحصيل ثواب الجمعة والجماعة . والجلوس لدعوة
الناس فيه الى الله سبحانه |

وهكذا خرج أحمد من سجن الخليفة ، ليعانى محنة سجن آخر
في بيته

وامتدت المحنة بقية أيام المعتصم ، وتلتها أيام الواثق ، وكان

(١) كلمة نائب تعادل في عرفنا الحالي كلمة محافظ .

الوائق شديد الوطأة على من لا يقول بخلق القرآن ، حتى قيل انه طلب أن لا يساكنه أحمد بن حنبل في أرضه . . . ومضت الأيام ثقيلة رهيبة ، ونجم المعتزلة في صعود ، ومحنة الإمام تستحكم وتشتد ، حتى انتهت أيام الواائق . . . وحرار رجال الدولة فيمن يولون بعده فقام أحمد بن ابى دؤاد فسخر سلطان الدولة لمجد المعتزلة ، وألبس المتوكل حلة الخلافة ، وعممه ، وقبله بين عينيه . وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين . . . ومضت الأيام وتعاقبت السنين ، والإمام محتجز في داره لا يبرحها سبعة عشر عاما . .

وكان المتوكل لا يرتاح للقول بخلق القرآن ، لكنه كان يكره على بن ابى طالب كرم الله وجهه - ويسرف في مطاردة العلويين - فنشط المعتزلة ليحكون دسائسهم لدى الخليفة ضد الإمام ، ويتهمون به بالجنوح لشيعة على ، وتتطور المحنة لتأخذ لونا جديدا آخر ، وتشتد الرقابة على الإمام ، ويرسل إليه نائب بغداد عبد الله بن إسحاق : الزم بيتك ولا تخرج وإلا نزل بك منازل بك في أيام والدى إسحاق ابن ابراهيم

وامتدت اعناق أهل الفتنة ، فاتهموا الإمام لدى الخليفة أنه يؤوى في بيته أحد العلويين ذوى القدر الخطير . . . ويشور الخليفة فيرسل بفوره إلى بغداد لمفاجأة بيت أحمد والقبض على العلوى المزعوم !

وفي ليلة من الليالي ، بعد أن نام الناس ، وهدأت الحركات ، وأرخى الليل سدوله على بغداد الهادئة الساكنة ، سمع أحمد دقا عنيقا على باب داره ، فقام إلى الباب ففتحه ، فإذا به أمام رجلين وأمرأتين .

أما الرجلان : فهما مظفر حاجب عبد الله بن إسحاق نائب بغداد ، والآخر ابن الكلبي صاحب البريد .

وأما المرأتان فهما هي مهمة البوليس النسوى في أيامنا هذه .. قال مظفر : يقول لك الأمير ، إن أمير المؤمنين كتب إليه أن عندك طلبته .

وقال ابن الكلبي : نعم إنك تؤوى في بيتك علويا من أعدام أمير المؤمنين ، وقد جئنا لأخذه .

فقال الامام : إني لا أعرف هذا ، ولا أرى سوى طاعة أمير المؤمنين في العسر واليسر ، والمنشط والمكره والآثرة ...

وسكت الإمام قليلا سكتة ذكر فيها حرمانه من المسجد بدون مسوغ ، واستأنف يقول : « إني أستأسف عن تأخرى عن الصلاة وعن حضور الجمعة ودعوة المسلمين ... »

قال ابن الكلبي : قد أمرني أمير المؤمنين أن أحلفك ما عندك طلبته ... أفتحلف ؟

قال أحمد : إن استحلفتني حلفت .

فأحلفه ابن الكلبي بالله فحلف... وبالطلاق فحلف...
وكان نساء الدار والعصيان قد حضروا... وحضر ابنه صالح
أبو الفضل... فقال ابن الكلبي :
أريد أن أفتش منزلك... ونظر إلى أبي الفضل وقال : ومزله
ابنك .

وقام مظفر وابن الكلبي ففتشا البيت... وفتشت المرأتان
النساء ، فلم يعثروا على شيء .

وفتشتا بيت أبي الفضل ، فلم يجدوا شيئاً...
وفتشت المرأتان أما كن الحريم... وجاءوا بشمعة فأدلوها في
البئر ، وانصرفوا بعد أن لم يجدوا شيئاً .

وتولى ابن الكلبي وصف حال الإمام من احتباسه عن الجمعة
والجماعة بدون مسوغ ، ومن صدق لهجته فيما يكن لأمر المؤمنين
من السمع والطاعة في المنشط والمكره... ومن براءته مما عزاه
إليه خصومه...

وأذن الله بانكشاف الغمة ، فجاءه بعد يومين كتاب من علي
ابن الجهم^(١) إن أمير المؤمنين « قد صح عنده براءتك بما قذفت به ،

(١) هو الشاعر الفحل من شعراء الدولة العباسية ، وكان فيما مضى يختلف
إلى مجالس الإمام أحمد وصحح عقيدته فيما يسمعه منه . فلما انقضت مدة الوائق الذي
كان شديداً على أهل السنة ومناصراً للمعتزلة ارتفع صوت علي بن الجهم بالثناء على
المتوكل وجفافاته المعتزلة . وازدادت صلته به وثقة الخليفة به إلى حين . وفي مدة اتصاله ==

وكان أهل البدع قد مدوا أعناقهم ، فالحمد لله الذي لم يشمتهم بك .
وأقبلت الخلافة على الإمام تخطب ودّه ، وتطلب المؤانسة بقربه
والتبرك بدعائه . . . وأخذت الأيام تدبر مولية بمجد المعتزلة . . .
فرض ابن أبي دؤاد بالفالج . . . وجاء بعض أعيان الدولة يتقربون
إلى الإمام بذكر ما نزل بابن أبي دؤاد . ويومثون إلى أن كرامة
الإمام على الله أوجبت ذلك القصاص . . . فلم يلتفت إليهم أحمد
وصمت ولم يرد ، وظهر عليه التبرم بما قالوا . . .

ومضت الأيام في إدارها على المعتزلة ، فغضب الخليفة على
ابن أبي دؤاد ، وقبض على أبنائه ، وصادر أملاكه وأمواله
وجواهره ، وأخذ ابن أبي دؤاد إلى بغداد بعد أن أشهد عليه بيع
ضياعه . . . فكان يأتيه من يحمل إليه تلك الأنباء . فيكرم نفسه
أن تنزل إلى مستوى الشماتة الرخيص ، بل كان الخليفة نفسه يرسل
إليه كأنه يستفتيه فيما يرى من مصير أموال ابن أبي دؤاد فكان
يسكت ولا يجيب بشيء

وهو موقف جدير أن يلقى على الناس دروساً في عظمة النفس ،

== بالتوكل وقعت الوشاية على الامام أحمد بايوائه العلوى ، فلما ظهر كذب أصحابها
تمكن على بن الجهم من إقناع التوكل بالتفريق عن الامام أحمد . وكان ابن الجهم
هو الذي كتب الى الامام بهذه البصري . (انظر مقدمة الأديب الكبير الاستاذ
خليل مردم بك لديوان على بن الجهم ، ووصف الديوان والسلام على ناظمه في مجلة
الازهر جزء رمضان ١٣٧٢) .

وشدة الإقبال على جلائل الأمور ، والانصراف عن سفسافها
وتافهها ... رحم الله الإمام ، لقد كان إماماً في كل مكرمة .
وبعد . فهل سعدت حال الإمام بإقبال الخلافة على وده ،
وطلب المؤانسة بقربه ؟

قد يقول كثير من الناس نعم ... ولكن أحمد يقول : لا ،
إنها محنة الدنيا ابتلى بها بعد محنة الدين !! فكيف كان ذلك ؟ .

ظهر إفك المعتزلة وكذبهم على أحمد . فأرسل اليه الخليفة
المستوكل كتاباً يقول فيه :

« قد صبح نقاء ساحتك . وقد أحبيت أن آنس بقربك ،
وأ تبرك بدعائك . وقد وجهت إليك بعشرة آلاف درهم معونة
على سفرك » .

وهكذا انتهت محنة الحبس والاضطهاد عن أحمد . وبدأت الأيام
تقبل عليه بلون آخر ، ووجه جديد .

بدأ الجاه الواسع ، والكرامة الجزلة ، والمال الكثير يخطب
وده ... وأقبل الخليفة يمد إليه يده بكل ذلك .

وفرح آل أحمد بالعافية تقبل مع السعة والجاه . وحل بالدار
نشاط وأنس ، ودب فيها بعد الوحشة ديب الحركة بمن صار يغشاها
من رسل الخليفة وكبار رجال الدولة ، وكان ذلك حرياً أن يمس
حياة الإمام بشيء من النضارة والسعة عقب ما قاسى في السنين الطوال

العجاف من قسوة وضيق ومناوأة... ولكن هيهات ؟
فقد تألق أحمد على المحنة ، وصفا وأشرق ، وسما عن دنيا الناس ،
ولم ير في إقبال هؤلاء عليه إلا إقبال محنة من لون آخر لا يعصم
من شرها إلا الله .

قال ابنه صالح : « لما جاء كتاب المتوكل بالمال ، ناداني أبي في
جوف الليل ، فقممت إليه فإذا به يبكي ، فلما رأيته قال : ما نمت
ليلى هذه ! ... سلمت من هؤلاء ، حتى إذا كان في آخر
عمرى بليت بهم ... ؟ »

فلما كان الصباح جاء الحسين البزار والمشايخ ، فقال : يا صالح ،
جئني بالميزان وبالدرهم ... ثم أخذ يزن المال ، ويقول وجها
هذا إلى أبناء المهاجرين ... وهذا إلى أبناء الأنصار ... وهذا
لفلان ليفرق في ناحيته ... وهذا لفلان ... وهكذا حتى فرقها
كلها ... فلما أحس أنه فرق معها كربته ، تنفس الصعداء ، ونفض
الكيس ، ثم تصدق به .

قال صالح : ونحن في حالة الله بها عليم ؛ فجاء ابن له صغير .
فقال : يا أبت ، أعطني درهما ! فنظر إليّ ، فأخرجت قطعة من
جيبى أعطيته إياها .

وبلغ الخبر المتوكل ، فقال علي بن الجهم — وكأنه يريد أن
يزيل شيئاً علق بنفس الخليفة — يا أمير المؤمنين ، ما يصنع أحمد
بالمال ، وقوته رغيف ، إلا أن يتصدق به ؟ وقد عرف الناس أنه

قبل منك الصلة ولم يردّها ! . .

قال الخليفة : صدقت . . .

وكان لابد لأحمد من تلبية أمر الخليفة ، لا خضوعاً لقوة السلطان ، بل وفاء لحق السمع والطاعة الذى فرضه الإسلام لولى الأمر فى غير معصية . . . فخرج من بغداد إلى سامرا ، ومعه يعقوب المعروف بقوصرة ، وهو الرسول الذى حضر إليه من لدن الخليفة بالمال والخطاب ، وخرج معه بعض بنيّه .

وكان يعقوب شديد السرور والزهو بنجاح مهمته ، فقد قبل أحمد بن حنبل أن يخرج معه . . . وكان يدرك مبلغ السرور الذى سيدخل قلب أمير المؤمنين بذلك ؛ فلما صار على مقربة من سامرا ، أراد أن يجعل البشرى بقدوم الإمام . . . وحدثته نفسه أن يجعل تلك البشرى مضاعفة الأثر ، حافلة بأسباب المسرة ؛ فما أحسن أن يكتب أحمد بنفسه كتاباً للخليفة — وهو فى طريقه إليه — بما شاء من الشاء والتقدير ، ومعانى الولاء لسلطانه ! .

ورأقت الفكرة ليعقوب ، فطار لها لبه ، أليس يرى الخليفة فيها أكثر مما كان يطمع من أحمد ؟ . . وأقبل يعقوب على الإمام .
يا لله ! . . إن الإمام فى واد غير وادى الناس ، وكربه يزداد ساعة بعد ساعة كلما اقترب من دار الملك .

ولقد غطى رأسه بغطاء غليظ ، ونكسه ولا يرفعه فى أحد . .

وَألقى يعقوب كلماته التي يريد ، واقتحم بها عليه عزلته وكرهته ، فأذا الإمام يضيق بتفاهة ما يفكر فيه الناس ، فلم يلتفت إلى الكلام ، ولم ير صاحبه جديراً بأن يرد عليه بشيء . . . فغضب يعقوب وأخذته العزة بالاثم . . وأقبل على صالح يقول له : « ما رأيت أعجب مما نحن فيه ! . . أسأله أن يطلق لى كلمة أخبر بها أمير المؤمنين فلا يفعل ؟ ! » . .

نزل الامام . بسرّ من رأى . ضيفاً على أمير المؤمنين ، . . ولم يكن للخليفة من هم . بعد أن عرف كل شيء عن أحمد . إلا أن يرضيه ، وأن لا يحمله على شيء يكرهه . . . وحسبه أن يعلم عامة الناس أن أحمد بن حنبل في ضيافته ، فهذه الضيافة وحدها لها من التفسير والتأويل عند الجمهور ما يتوطد له الملك ، ويستقر عليه أمر السلطان .

عرف الخليفة أن أحمد لا يقبل ماله ، فلم يكن له بد من النزول على رغبته ، واحترام إرادته . ولكن لا بد من أن يصله في قرابته . فليكن المال لأهله وبنيه دون أن يعلم . . . وتسلم صالح ابنه — بأمر الخليفة — عشرة آلاف على الفور مكان التي فرقها أبوه ببغداد . على أبناء المهاجرين والأنصار وسواهم .

وعرف رجال القصر لطفة الخليفة على أحمد . وشدة إقباله عليه . وإكباره له ، فأقبلوا عليه بمثل ما أقبل سيدهم ، كل يخطب

وده ، ويتنقى إليه المنزلة ، ويحاول أن يسره بما يستطيع .
فهذا وصيف — عاهل رجال القصر — يرسل ابن هرثمة
حاملًا إليه التحية ويقول : « الحمد لله الذى لم يشمت بك الأعداء »
أهل البدع . . . قد علمت من حال ابن أبي دؤاد . فينبغى أن
تتكلم فيه ما يجب لله . . .

والقوم لا يدركون أن أحمد قد وهب لله ما لقي بسبب ابن
أبي دؤاد من السجن والتعذيب والاعتقال ، وضروب المحن ، وسما
بذلك عن التأثير والضعف . فليس فى قلبه من مودة لخصمه القديم
العتيد . . . وليس لتلك الوسائل التى يتقربون بها إليه ، ويشيرون
بها إحن الماضى أقل نصيب من عنايته أو احترامه .

ويجئ من رجال القصر من يسأله رأيه فى ابن أبي دؤاد ،
وفيما اقتنى من الأموال والضياع والجواهر فلا يجيب . . . !

ويجئ يعقوب وسواه ليحدثوه بما يجرى لابن أبي دؤاد من
المحن . . . فمرة قد أشهد عليه ببيع ضياعه . . . وثانية قد أخذ إلى
بغداد مقبوضاً عليه . . . وأخرى . . .

كل ذلك والإمام فى أفقه العالى ، لا يزيد سماع الرياء والسفساف
إلا زهدا وانقباضاً ، وضيقاً بما يحيط به من أجواء النفاق والملق
وأسباب الفتن والبلاء .

أمر الخليفة أن تفرش الدار التى هيئت له بالفرش الوثيرة .

وان ترتب له ومن معه من بنيه مائدة شهية واسعة .
وأمر أن يقطع له ملابس فاخرة : طيلسان وقلنسوة وشارات
رسمية من السواد الذي اختارته الدولة العباسية شعاراً لها
ويحضر يحيى بن خاقال فيقول : إن الخليفة أمرني أن أصير لك
مرتبة في أعلى ، ويصير ولده المعز في حجر ك ، تؤدبه بما شئت من
أدب القرآن وسنة رسول الله ﷺ .

إنها الدنيا تقبل بالجاه الجزل ، والمقام المرموق ، وتبرج له
بكل ما تستطيع من زينة ، عليها تظفر منه ولو بلغته ، أو لحظة من
جانب الحدق ! .

وجاء يحيى في اليوم التالي يدعوهُ أن يركب إلى دار المعز .
ويقول في لهجة مهذبة : تركب يا أبا عبد الله ؟ .
فيقول الإمام : ذاك إليكم .

وكان يوماً مشهوداً في القصر ، ألبسوه هناك الطيلسان ،
وما أمر له به الخليفة من ألوان الثياب والشارات ... ويقول بعض
الخدم ! إن الخليفة كان مع أمه مستترين خلف ستار من ستر القصر ،
يرقب في خفاء ما يكون من أحمد ، فلما رآه يدخل ، أخذته رجفة ،
وغشيته هزة من الفرح ، ولمع السرور في عينيه وقال : يا أمّه ،
قد أنارت الدار بدخول أحمد ! .

إذا جاز أن يعتذر الدهر لإنسان عن إساءة أسلفها إليه ، فهل

يعتذر بمثل ما يعرض اليوم على أحمد بن حنبل من الكرامة المقبلة بلا قيد ولا شرط ؟ .

يقول ابنه صالح : لما عاد أبى من القصر إلى الدار التي أعدت له ، نزع عنه الثياب التي أنعم بها عليه ، وجعل يبكي ويقول : « سلبت من هؤلاء منذ ستين سنة ، حتى إذا كان في آخر عمرى بليت بهم ؟ .. ما أحسبني سلبت من دخولي على هذا الغلام ، فكيف بالخليفة الذي يجب على نصحه من وقت أن تقع عيني عليه إلى أن أخرج من عنده ؟ .. » .

ثم التفت إلى الملابس وقال لابنه : « وجه بهذه الثياب إلى بغداد . فبعها وتصدق بثمانها ، وحذار أن يشتري أحد منكم شيئاً منها ! .. » .

أما الفرش الوثيرة الطرية ، فقد نحى نفسه عنها ، وألقى بنفسه على مضربة خشنة له . . . ونظر إلى حجرة في جانب الدار ، فأمر أن يحول إلى ركن منها ، وأن لا يسرج له فيها سراج قط .

وأما المائدة فقد عافها ، فلم يدخل بطنه شيء منها . . . وكانت شهية حافلة ، حتى إن صاحب الدار التي كانوا ينزلون بها — لما رأى إعراض أحمد عنها — ساوم صالحاً بثلاثة آلاف يدفعها له مكانها كل شهر فأبى . . . وناهيك بمائدة تتكلف كل شهر ثلاثة آلاف

أو أكثر في تلك العصور الخاليات ١١ .

بلغ الضجر بالإمام كل مبلغ ، وبرم بكل شيء ، وزهد في كل شيء . . . ولم يعد أبغض إليه من أن يلتقي رجال الخليفة ، حتى كان يدعهم مع بنيه في الدهليز ويقبل على صلاته وقراءته ما شاء الله . وكان المرض ينزل به فيراه عافية سابعة لما فيه من عافية احتجابه عنهم !

اشتكت عينه مرة ، فلما برئت ضاق ببرئها ، وقال لولده صالح : « ألا تعجب ؟ ! كانت عيني تشتكي فتمكث حيناً حتى تبرأ ، ثم هي في هذه المرة تبرأ في سرعة ! . . . »

أقبل الإمام على الصلاة لا يفتر . . . وعلى القرآن يختمه كل جمعة . . . وعلى الصيام يواصله في الصيف القاطظ ، فلا يفطر إلا كل ثلاثة أيام . . . أو كل يومين ؛ فإذا أفطر ، أفطر على تمر وسويق أو على رغيف ! وكانت المائدة توضع في الدهليز حتى لا يراها . . . فساعات صحته وذهبت قوته وضعف بدنه .

وكان يأخذه العطش ، ويجهده الحر ، فتبل له خرقة بالماء ، فيضعها على صدره الذي يعلو ويهبط بما يتردد فيه .

وكان الطبيب ابن ماسويه يعود كل يوم من قبل الخليفة لينظر ما به من علة . فيقول له : « يا أبا عبد الله ، أنا أميل إليك وإلى

أصحابك . . . وواقع ما بك من علة إلا الضعف ، وقلة الطعام والبر .
ولكن أحمد يمضى فى صيامه وقلة الطعام والبر ، لا يلوى على
كلام ابن ما سويه .

ويدرى أن الخليفة أمر أن يشتري له دار بسرّ من رأى ليقم
فيها حياته محدثاً بحديث رسول الله ﷺ ، فتعظم به المحنة ، وتزداد
الآزمة انقباضاً وحدة ، ويدعو صالحاً ابنه ويقول له : « لئن
أقررت لهم بشراء الدار لتكونن قطعة بيني وبينكم . . . إنما يريدون
أن أحدث فيكون هذا البلد حبسى ! . . وما حبسى إلا جوار
هؤلاء . . . والله لقد تمتيت الموت فى الأمر الذى كان أيام المعتصم ،
وإني لأتمنى الموت فى هذا ! ! إن هذا فتنة الدنيا ؛ وكان ذاك
فتنة الدين » .

قال صالح : جعل يضم أصابع يده ، ويقول : « لو كانت نفسى
فى يدي لأرسلتها ! » ثم يفتح أصابعه ! .

وكانت رسل الخليفة لا تنقطع عن أحمد يرسلهم إليه كل يوم ،
برأيه وتلطفاً إليه . . . فهذا محمد بن معاوية يقول له : أمير المؤمنين
يكثّر ذكرك ويقول : تقيم ها هنا تحدّث . . . فيجزع أحمد لأمر لا
يد بمخالفته ، ولا طاقة له بقبوله ، فيلوذ إلى الاحتجاج بالمرض :
« أنا ضعيف ، . . . ويضع إصبعه على بعض أسنانه ويقول :

« إن بعض أسناني يتحرك ، وما أخبرت بذلك ولدى .
ويأتيه رسول آخر يعرض عليه أن يزور الخليفة . ويومئ
إلى ذلك بطرف خفي بقوله : « أمير المؤمنين مشتاق إليك » . . .
فيسكت . . !

وتتوالى الرسل تقول له : « يا أبا عبد الله لا بد له من أن
يراك ، فيسكت ولا يجيب . . . فإذا انصرفوا قال لابنه صالح :
« ألا تعجب من قولهم ، لا بد له من أن يراك ؟ » .

ولكن الخليفة يلح في المقابلة ! ويتلطف فلا يعرض على أحمد
ميعاداً بعينه . بل يترك له تحديد الوقت الذي يلائمه ، فيجئ
يعقوب ويقول :

يا أبا عبد الله ، أمير المؤمنين مشتاق إليك ، ويقول لك :
« انظر اليوم الذى تصير إليه فيه ، أى يوم هو حتى أعرفه ؟ » .

ويرى أحمد نفسه أمام أمر من الخليفة لا بد له من إجابهته أداء
لحق السمع والطاعة . ويتأدب بإزاء أدب الخليفة فلا يقبل أن
يحدد موعد المقابلة ويتركه لمن يهمهم الأمور ؛ فيقول للرسول :
« ذلك إليكم » .

فيقول الرسول : يوم الأربعاء خال .

لم يكن فى تلك الفترة شيء أبغض إلى نفس أحمد من هذا اللقاء !

إنه الملك يحنى هامته له ، وقد أقبل عليه يخطب وُدّه ، حاسراً التاج
عن مفرقه ، متجرداً من كل شارات الجلالة إجلالاً لمكانه . . .
فماذا يبتغى أحمد ، وهى منزلة لا يحلم بها حالم من طلاب الدنيا ؟ .

إن أحمد لا يبتغى شيئاً من ذلك ، ولا ينشد إلا المعافاة منه . .
إنه لا ينظر إلى ما هو فيه إلا على أنه محنة ، ولا ينظر إلى المتوكل ،
إلا على أنه معتصم ولكن من طراز آخر . وما المال والجاه
والقرب ، إلا سياط هذا المعتصم الجديد . . . سياط لا تلهب
الأعصاب ولا تحرق البدن . ولكن تلهب حساً قدسياً فى وجدانه .
يجد لسعة المفزع دون أن يدري له كيفاً أو يستطيع عنه إبانة .

لقد عانى أحمد من بلاء هذه المحنة . أو من بلاء هذه العافية
إلى الآن فوق ما يطيق . . . وجاء هذا اللقاء ، لقاء يوم الأربعاء
الموعود بما لم يحىء مثله من قبل ، فهو لا يتمنى على الله إلا أن يعافيه
من أزمته . . . فهل يجيبه سبحانه إلى ما يتمنى . وهو جل شأنه
الذى يقوله فى الصابرين من عباده : ﴿ لهم ما يشاءون عند ربهم ﴾ ؟
يا لله ! ما أجمل كرامة أولياء الله عليه ! . وما أطف معافاته
لهم مما يكرهون ! . وما أجمل ما يصنع لهم فى الخفاء لكشف
كروهم وهم لا يحتسبون ! .

ماذا كان يوم الأربعاء على قلب أحمد ؟ !

وماذا كانت شمس ذلك اليوم فى مرأى بصره وهى تطلع ؟

وأى كرب ذلك الذى كان يجثم على صدره وهو ينتظر قدوم رسول الخليفة ليصحبه إلى المقابلة ؟ ! .

وماذا كان من حاله حين هبط عليه الرسول المرتقب فجأة ، لا ليصحبه إلى الموعد ، بل ليقول له : « البشرى يا أبا عبد الله ! ، أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام ويقول : « قد أعفيتك من الركوب إلى . . . وإلى ابني المعتز . . . وإلى ولاية العهود . . . وأعفيتك من لبس السواد . . . فإن شئت فالبس القطن . . . وإن شئت فالبس الصوف . . . » ! .

لقد هبط الفرج المفاجيء عليه هبوط النور فى العين المظلمة . . واهتزت السريرة المكظومة المحترقة تتنفس الصعداء وتنشق تلك البرودة العذبة التى أقبلت عليها بنفحات قدس الله . وانطلق اللسان الشاكر النذاكر يسجل لله نعمته : الحمد لله . . الحمد لله .

كانت الدار التى نزل بها أحمد فى « سامراء » تستقبل كل يوم عديدا من رجال الدولة وغيرهم . يغدون عليها لزيارته والاطمئنان على حاله . . . وكان ولداه عبد الله وصالح يقومان عنه باستقبالهم وتحيتهم . أما هو فكان لا يخرج إليهم من حجراته وصلاته إلا قليلا . فانهدر صالح إلى بغداد يوماً لبعض شأنه ، فأمر عبد الله أن يلحق به ، وقال له : الزما بغداد ، ولا يخرج أحد منكما إلى ، فإنما أتم آفتى ! . . والله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما أخرجت منكم

واحداً معي . . . لولا مكانكم مني فلمن كانت توضع هذه الفرش ؟
ولمن كانت توضع هذه المائدة ؟ . .

خلفت الدار على أحمد بعد سفر ولديه ، شملها سكون ووحشة ،
وطويت الفرش على ما صدق ظنه . وانقطع مجيء المائدة ، وقل
الوارد من الزوار ؛ وأمعن الشيخ في خلوته ، وصيامه وعبادته ؛
وأمعن في الضعف والهزال . وساءت صحته . . ولم يعد للقوم مأرب
من مقامه بينهم على هذه الحال . . وهو ما كان يريد .

سأل عنه الخليفة يوماً فقبل له : إنه عليل . . . فقال : « قد
كنت أحب أن يكون في قربي . . . وقد أذنت له . .

وجاءه البشير بذلك في جوف الليل : قد أذن لك الخليفة . . .
وهذه ألف دينار لنفقتك ، ونحن بسبيل تهيئة حراقة لك تنحدر
بها في دجلة إلى بغداد .

وانقضت بذلك محنة أحمد بسرٍّ من رأى ، وانكشف عنه ما كان
يجد من الكرب والفتنة . وقال للرسول : أما المال ، فلا حاجة لي
به ، « وقد أعفاني أمير المؤمنين بما أكره . . وأما الحراقة فيغني عنها
دابة من دواب البريد ، وهي أرفق بي وأيسر .

كانت محنة الجور من السلطان أرفق بأحمد من محنة إقباله عليه
بإلجاء والعطاء والمال ! .

كان يريد أن يسلم له دينه ويقيمه ، أو يسلم له قلبه ووجدانه :
ولا آفة للإيمان إلا حب الدنيا ، ولا آفة للقلب إلا الركود إلى
زينتها . . . فإذا فسد الإيمان ، وهلك القلب ، فأى شيء يكون المرء
عند الله جل ثناؤه ؟ .

وقد يعظ الناس بعضهم بعضاً بمثل هذا الكلام ، فيكون وعظهم
من قبيل التقرير لأمور نظرية ، ويكون تقبلهم له من قبيل الارتياح
إلى الكلام الحسن الذى لا يكلفهم قليلاً ولا كثيراً من مشقة الصبر
أو خشونة المجاهدة . . أما أحمد رضى الله عنه فقد أبصر تلك
الحقائق رأى اليقين والبصيرة ، فشمّر لها على حذر ، وتجرد لها على
خشية من الله . ورغبة صادقة فى السلامة والأمن .

لقد نشأ له فى خفايا نفسه عينان لا كالعيون ، تبصران له ما فى
عالم المعانى من الحقائق والقيم . . . فكان يمسى ويصبح ، ويغدو
ويروح ومعالم هذا الأفق الخفى ساطعة فى نفسه . شاخصة لوجدانه ،
فهى بالنسبة له أمر واقع ، وشيء حاضر قائم ، لا سبيل إلى تجاهله
أو الانصراف عن خطورة شأنه .

إن الدنيا المقبلة عليه بجاهها وما لها وكل زينتها ، لا يراها هو
كما يراها سائر الناس . . إن حلاوتها فى القلب هى مُسَمِّمُ الزعاف
القاتل وإن ريحها اللينة المقبلة بالنعيم فى رأى الناس ، إن هى
إلا الإعصار المحرق الذى يأتى على ما أنشأ الإيمان فى رياض النفوس .

كان أحمد يرى كل ذلك رأى العين والبصيرة . . . فهل يرفع الكأس إلى شفتيه وهو يعلم أنه السم الزعاف ؟ . . . وهل يستقبل الإعصار في طمأنينة وهو يرى ألسنة الحريق واللهب تمتد إليه لتطويه في ثناياها ؟

ذلك هو وجدان أحمد . وتلك هي حقيقته التي كان يعيش فيها بين الناس . . يرى ما لا يرون ، ويدرك ما لا يدركون . . .

وكان شديد الحرص ، أن يجنب أبناءه ما يجنب نفسه من آفة الدنيا ، وأن يحميهم بما حوى نفسه منه . وفيه خيرهم الحق ، ونجاتهم من كل شر . ولكن هل يبلغ صوته آذانهم . وهل يعون عنه سمو الهدف الذي يريد ؟

لقد عاد إلى بغداد ، واستقر بين بنيه وأهله ، فأقبل على ابنه صالح يقول له : « يا بني ، أحب أن ندع هذا الرزق الذي نأخذ من الخليفة ، فقد علمت أنكم إنما تأخذونه بسببي . »

قال صالح : فسكت .

قال أحمد : مالك لا ترد ؟

قال صالح : أكره أن أعطيك شيئاً بلساني . وأخالف إلى غيره . وقد كنت أشكو إليك فاقتي وكثرة عيالي ، وكنت تدعوني ، فأرجو أن يكون الله قد استجاب لك .

قال : ولا تفعل ما أقول لك ؟

قال صالح : لا

فغضب أحمد وطرده من مجلسه . وأقام جداراً يسد ما بينه وبين بيته .

قال صالح : وكان إذا بلغه أنا قبضنا شيئاً اغتم وطوى ليلته فلم يفطر ... وظللت أشهراً لا أدخل عليه . فوجهت إليه : يا أبت ، قد طال هذا الأمر عليّ ، وقد اشتقت إليك .

فسكت ... قال : فدخلت إليه وأكبت عليه ، وقلت له : يا أبت تدخل على نفسك هذا الغم ؟ فقال : يا بني ، يأتيني ما لا أملكه !

وتكلم عبد الله بن محمد المعروف بيوران ، وقال : يا أبا عبد الله صالح يرضيك الله .

فقال : يا أبا محمد ، والله لقد كان أعز الخلق عليّ . . . وأى شيء أردت له ؟ ما أردت له إلا ما أردت لنفسى !

فقال صالح : يا أبت ، ومَنْ من خلق الله الذين رأيتهم أو لقيتهم ، يقوى على ما قويت أنت عليه ؟ فغضب أحمد وقال : وتحتج على ! ؟

وانقطع الراتب شهوراً عشرة ، عن كل شهر أربعة آلاف ، وارقاح أحمد بعض الشيء . ولكن الخليفة يعلم ، يبلغه ذلك ،

فيأمر بالاربعين ألفاً أن تحمل للفور إلى ولد أحمد . فلما جاءت
أرسل إليه صالح ينبئه ، فسكت قليلا . . وجعل يضرب ذقنه بيده
ساعة . . ثم رفع رأسه . وقال : « ما حيلتي إذا أردت أمراً ،
وأراد الله أمراً ؟ »

وقدم المتوكل فنزل بظاهر بغداد في طريقه إلى المدائن ، فهل
خف أحمد إلى لقائه وتحتيته مع من خف من الأعيان
والكبار والشيوخ ؟

لقد عرفنا مذهبه ، فهو يريد أن لا يرى أحداً من أرباب الجاه
والسلطان ، وأن لا يراه أحد منهم . !

لم يخف إلى لقاء الخليفة ، بل لم يحدث نفسه به . . بل ذهب إلى
ما هو أكثر من ذلك . قال لابنه صالح : « يا بني ، لا تذهب اليوم
حتى لا يراك أحد منهم فيذكرك بك » ،

ولكن الخليفة ينظر في وجوه الأعيان ، فيرى كل وجه
لا يريده . . ولا يرى الوجه الذي يحب أن يراه !

وكان صالح جالساً بظاهر الدار على باب الزقاق ، في اليوم
التالي ، وكان يوم مطر . . قال : وإذا يحيى بن خاقان قد جاء والمطر
عليه في موكب عظيم ، فلما رآني قال : سبحان الله ! لم تصل إلينا حتى
تبلغ أمير المؤمنين السلام عن شيخك ، حتى وجه بي إليه .

ونزل خارج الزقاق . وجهد عليه صالح أن يدخل على الدابة ،

فلم يفعل ، وجعل يخوض المطر . . ودخل على أحمد وهو قاعد على زاوية من البيت عليه كساء مربع . . فسلم عليه . وقبل جبهته . وسأله عن حاله ، وقال : أمير المؤمنين يقرئك السلام ، ويقول : كيف أنت في نفسك ، وكيف حالك ؟ ويسألك أن تدعو له .

قال أحمد : ما يأتي على يوم إلا وأنا أدعو الله له .

قال يحيى : وقد وجه معي ألف دينار تفرقها على أهل الحاجة .

قال أحمد : يا أبا زكريا ، أنا في البيت منقطع من الناس ، وقد

أعفاني من كل شيء أكرهه !

قال يحيى : يا أبا عبد الله ، الخلفاء لا يحتملون هذا ! .

قال أحمد : يا أبا زكريا ، تلطف في ذلك . . ودعاه له .

* * *

تلك هي عزة الدين ، وذلك هو الملك الحق !

أشرف أحمد على النهاية ، وأشرف معها على الغاية ، وأخذت

أيامه الأخيرة تدنوه به رويداً رويداً إلى باب الخلود .

أطال الصوم . . وأدام الصلاة ، لا يصلي إلا قائماً ، يمسكه ولده

إذا قام ، ويسنده إذا ركع أو سجد . . واجتمعت أوجاع الخصر .

قال ابنه صالح : أما عقله فلم يزل ثابتاً صافياً .

وذاع في بغداد أن صديق العصر يوشك أن ينتقل إلى

جوار الله .

وفزع الناس : يهوديهم ، ومجوسيهم ، ومسلمهم ، ونصرانيهم .
فقد كان أحمد ملكاً للإنسانية بأسرها ، ورحمة لكافة من أظله لواء
الإسلام أو ذمته .

وأرهفت الأسماع ووجفت القلوب ، حتى إذا مضت ساعتان
من يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول من سنة إحدى وأربعين
وما تين نغاه الناعي ! .

ووقف دولاب الحياة في بغداد بأسرها عن كل حركة ،
وفرغت المدينة العظيمة ليوم إمامها الجليل . والكل ما بين حزين
مكتئب ، وباك منتحب . حتى أسدلوا عليه التراب في جدته المنور .
ونظر رجال الملك من زوايتهم يقدرون منها موت أحمد ،
ونظر رجال الاجتماع ، ونظر رجال الحقيقة .

أما رجال الملك ، فقد بعث الخليفة حازراً يحزرون له عدد
من يصلى على أحمد من الناس صلاة الجنازة ، فقد كان له فيهم ملك
وساطان من وراء ملك الخليفة وساطانه . فعاد الحازرون يذكرون
له مليوناً وثلاثمائة ألف نسمة ، عدا الذين لم يتمكنوا من الصلاة !!
أما رجال الاجتماع ، فقد لخصوا أثره بقول الدركاني : وقع
الماتم والنوح يوم مات أحمد بن حنبل في أربعة أصناف من الناس :
المسلمين ، واليهود ، والنصارى ، والمجوس !

أما أهل الحقيقة ، فيقفون طويلاً على ما كان منه في لحظه

الآخيرة ، وقد جاءت سكرة الموت بالحق ، وكشف عنه غطاؤه ،
فيرى بعيني بصره وبصيرته ما كان مستوراً عنه من الحقائق . .
ويرى إبليس وقد وقف في ركن من الحجرة يعرض على أنامله
من الغيظ . . ويسمعه يقول :

لقد أجهدتني يا أحمد أكثر من ستين عاماً ؛ وها أنت ذا تفلت
منى اليوم ؛ وتفوتني دون أن أنال منالاً !

فيقول له أحمد : لا . . إني لم أفتك بعد ؛ ولم أفلت منك ؛
فما يزال في الصدر أنفاس تتردد ؛ وما يزال في البدن خفقة من
حياة ؛ وما يزال لكيدك فيها متسع !

قال ابنه عبد الله فقلت : يا أبت إيش هذا الذي قد هجعت به ؟
فقال لي : يا بني ، ما تدري ؟
فقلت : لا !

فقال : إبليس لعنه الله ؛ قام بجذائي عاصباً على أنامله ؛ يقول :
يا أحمد فتني !

فقلت له : لا بعد ؛ حتى أموت .

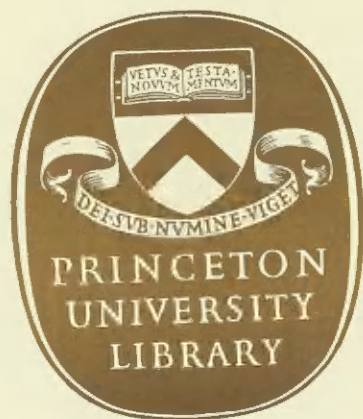
وتعاقبت الأنفاس التي تتردد في صدره ؛ تخرج واحداً في إثر
الآخر حتى لفظ آخرها . وانطفاأت خفقة الحياة ، الحياة التي كانت
باقية في بدنه .

وأطبق فيه !
وأغمر عينيه إلى الأبد

المجلد الرابع

المطبعة السلفية - ومكتبتها

٢١ شارع الفتع بالروضة تيفو ٢٩٣٦٤



WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa.
JULY-AUG. 1993
We're Quality Bound

(NEC)

KBP310

.I2653

I436

1953